أبو العباس المرسى

ومسجده الجامع بالإسكندرية

تأليف

حسن السندوبى

القاهرة
مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٤

الطبعة الأولى بنفقة وزارة الأوقاف

إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك الصالح المتوكل على الله
"فاروق الأول" ملك مصر

مــولاى :

جرت سُنة الكُتّاب، فى عهود آزدهار العلوم والآداب، أن يرفعوا إلى الصالحين من ملوكهم، ثمار قرائحهم. وأن يشرفوا آثارهم، بعهود مآثرهم. لتكون خالدة على الأدهار، باقية فى جباه الأعصار.

واقتداء بهذه السنة الحميدة، وانتهاجا لهذه الشرعة المجيدة، آثرت أن أتوج هذه الرسالة — التى وضعتها عن "أبى العباس المرسى ومسجده الجامع بالاسكندرية" — باسم مولاى الفاروق. وأن أرفعها إلى سدته العلية. لاسيما وقد كان لمولاى الفضل الأكبر فى إتمام ما بدأ به والده المصلح العظيم الملك "فؤاد الأول" — أسكنه الله فسيح جناته — من إنشاء هذا المسجد وتشييده، حتى بلغ بعنايته الملكية فى عهده السعيد، الغاية التى لاتنال، من الفخامة والجلال. و بذلك جاء تحفة فنية يفخر بها عهده، و يزهو بها عصره.

ولا أشك فى أن عطف صاحب الجلالة المليك المحبوب وسامى تقديره، سيشملان هذه الرسالة بما تستحقه من الرعاية، وسيحلانها من النظر الكريم محل القبول. فمولاى حفظ الله وجوده، خير من ترفع إلى سدته الأسفار، وتتوج باسمه الآثار.

والله أسأل أن يمد مولاى الفاروق بروح من عنده. وأن يديم إمتاع أمته الكريمة بطول حياته، وهناءة أوقاته. وأن يؤيده بنصره المؤزر على وجه الزمن إنه سميع مجيب .

المخلص فى ولائه
حسن السندوبى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف النبيين ، وأكمل المرسلين ، أفضل أصفيائه ، وصفوة أوليائه : محمد بن عبد الله ، المبعوث رحمة للعالمين ، ونجاة للمتقين ، والمنزل عليه فى كتابه المكنون : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

مقدمة

وبعـــد ، فقد رغب إلىّ حضرة صاحب المعالى السيد محمد عبد الهادى الجندى باشا وزير الأوقاف ، فى أن أضع رسالة فى حياة الشيخ الصالح العارف بالله "أبى العباس المرسى" . وفى تاريخ مسجده الجامع الشهير بالإسكندرية ، على الطريقة التى أراها صالحة لذلك ، فرأيت أن أتتبع آثاره ، وأستقصى أخباره ، وأن أبين الأدوار التى مرت بالمسجد : من وضع وإنشاء ، وتشييد وبناء ، وتجديد وسناء . على أن أصفه على الحالة التى أصبح عليها من الفخامة والجمال ، بعد أن كفله المغفور له الملك "فؤاد الأول" بكريم عنايته ، وشمله الملك الصالح المتوكل على الله "فاروق الأول" بعظيم رعايتــه ، حتى بلغ شأو الكمال ، وأوفى على الغاية من البهاء والجلال ، وجاء على خير ما يرجى أن تكون عليه المساجد الجامعة فى ديار الإسلام .

فجردت العزم للقيام بهـذه الرغبة ، وواصلت النهار بالليل ، باحثا منقبا . غير أنى رأيت أن الرسالة لا تكون تامة الوضع ، مرجوة النفع ، إلا إذا قامت على الإحاطة والاستقصاء ، وإلا أن تكون سلسلة فصولها متصلة الحلقات ، ملتحمة البناء ، محيطة بكل ما يهم معرفته من حياة الشيخ أبى العباس . وما يصح الوقوف عليه من دقائق أحواله ، وجلائل أفعاله ، وبدائع أقواله .

⁂

ولأجل الوصول إلى هذه الغاية، بدأت القول بتمهيد فى علاقة المصريين بالأندلسيين فى ذلك العهد الذى وفد فيه "أبو العباس" إلى الديار المصرية مع شيخه أبى الحسن الشاذلى، وعلة ما لقياه بمصر من الحفاوة والإجلال .

⁂

ثم تلوت ذلك بالكلام عن أبى الحسن، و بينت شؤونه وأحواله ، ومبادئه وأقواله ؛ لأن شرف التابع بشرف المتبوع ؛ ولأنه لا يظهر فضل أبى العباس إلا بظهور فضل أبى الحسن . ومما لاشك فيه أن الشيخ أبا الحسن كان رأس مدرسة خاصة تخرج فيها رجال أضاؤا العقول ، وأناروا القلوب ، وسموا بالنفوس إلى الغايات المرجوة من طهارة الأرواح .

⁂

وما مثل مجىء أبى الحسن الشاذلى إلى الديار المصرية من الغرب، إلا كمثل مجىء السيد جمال الدين الأفغانى إليها من الشرق، كلاهما أحيا نفوسا بمعارفه، وبعث هما بمواقفه ، وأنار عقولا ، وملأ صدورا ، وحرك قلوبا : ذاك باللطائف العلية، والمعارف اللدنية . وهذا بالشرائع القدسية، والعلوم الكونية . وكلاهما ترك تلاميذ ومريدين حملوا لواءه ، وأذاعوا فضله وأعلنوا نداءه ، وترسموا منهج إصلاحه ، وسروا فى ضوء مصباحه . وكلاهما تركزت معارفه على تنوعها فى واحد من أصحابه ، بذ أقرانه ، وفاق أخدانه . فكان أبو العباس للشاذلى ، كمحمد عبده للأفغانى . كما كان ابن عطاء الله فى إذاعة مبادئهما، كالسيد رشيد رضا فى نشر معارفهما . وهذا من الدلائل على عناية الله بمصر ورعايته لأهل كنانته .

ثم أمضيت الحديث عن أبي العباس، فذكرت حياته على الصورة التي يستريح إليها القارئ المصري، مصفاة من الشوائب التي لم يألفها الذوق المصري، كما عرضت مناقبه وشمائله. وتلوت ذلك بالمأثور من بديع كلامه، والمذكور من مباذئه وتعاليمه، وقفّيت على أثره، بالمرويّ من نثره، والمختار من شعره.

ولإظهار كمال فضله، وإبانة آثار نبله، انتقيت من تلاميذه ومريديه ثلاثة: هم القدوة الراجحة، والأسوة الصالحة، فعرفت بالبوصيري، وبابن عطاء الله السكندري، وبياقوت العرشي. وما منهم إلا من هو عظيم فى بابه، إمام فى محرابه.

ثم تكلمت عن المسجد القديم وما طرأ عليه فى عهوده المختلفة، إلى العهد الأخير، كما بينت الأدوار التي اقتضاها إنفاذ المشروع الخاص بتجديده وإنشائه، بناء على الرغبة الملكية السامية، التي أشار بها المغفور له الملك "فؤاد الأول" أسكنه الله فسيح جناته.

أما الجامع الجديد، فقد وصفته على ما صار إليه وصف معاينة ومشاهدة، فلم أترك فيه شيئا يحسن عرضه، إلا أعطيته حقه من الوصف الدقيق بأقيسته ونعوته.

ولما كان الجامع يحوى ضريحا غير ضريح أبي العباس، كان من الضروري، لتمام الوصف وكمال البيان، التعريف بسكان هذا الضريح، لاسيما وقد أرشدني البحث عن حقيقتهم إلى أنهم كانوا من أكابر العلماء، وأفاضل الصلحاء. فعرفت كلا منهم تعريفا وافيا، ليكون حاضر المسجد على بينة مما فيه، وعلى علم مما يشمله ويحويه.

⁂

على أنى فوق ذلك، قد طرّزت حواشى هذه الرسالة بالشروح والتعليقات، التى لا بد منها لإبانة ما يحسن إبانته مما تخللها من الإشارات، وكثير منها قد يدق على متوسطى الفهم، أو يحتاج إليه طالب العلم، كما حليتها بالتراجم والتعريفات لمن وردت أسماؤهم فى ثناياها من رجال العلم والدين وأعلام التاريخ، موجزا الكلام عليهم، مع كشف طرف من مزاياهم، وأثبتُّ تواريخ وفياتهم بالسنة الهجرية، مقترنة بالموافقات للسنة الميلادية. وفى هذا مِرفق لمن يريد البحث من جميع نواحيه الدنية أو القصصية، كما تحريت ذلك وحققته، حتى إن القارئ ليخرج من هذه الرسالة وقد تفتحت أمامه سبل المعلومات، واتسعت بين يديه رحاب المفهومات، وألم بماجريات الأحداث الزمنية فى عهود أعلام هذه الرسالة.

⁂

وقد اعتمدت فى إيراد ذلك كله على مراجع شتى — تراها فى ثبتها فى آخر الرسالة — وعلى مشاهدات كثيرة، واستعلامات جمة من أهل المعرفة، وعلى انتزاع من قوى النفس، وإلهام من خطرات القلب، ولوامع من طوايا الضمير.

ولعلى بهذا أكون قد بلغت الغاية التى توخيتها فى تأليف هذه الرسالة وتحريرها من التحقيق والتمحيص، ولقد راعيت فيما اخترته فيها من كلمات منثورة أو عبارات منظومة وما عرضت له فيها من بحوث، الذوق العصرى والتفكير الحديث.

⁂

وبعد، فهذه الرسالة سيجد فيها المؤرخ حجته، والأديب بغيته، والباحث ضالته، والصوفى غايته، والقارئ سلوته. أضعها بين يدى القراء على اختلاف وجهات أنظارهم، وتباين مرامى أفكارهم. ومن الله تعالى وحده أستمد التوفيق وأرجو حسن الجزاء.

حسن السندوبى

القاهرة فى يوم الخميس { ٢٦ ربيع الأول سنة ١٣٦٢
أول أبريل « ١٩٤٣ }

تمهيد

في

علاقة المصريين بالأندلسيين

لما كان الشيخ أبو العباس أندلسى الأصل ، وكان شيخه أبو الحسن مغربى المنشأ ، وكلاهما مصرى الوفادة والإقامة والوفاة ، رأيت من الحديث الحسن أن أشير إلى ما كان بين المصريين وبين الأندلسيين والمغاربة من النوازع النفسية ، والروابط القلبية ، التى كانوا يؤثرونها على غيرها من الإعتبارات ، فتقوم بينهم مقام الأواصر والعلاقات ، ليتبين كل مطلع على هذه الرسالة الأسباب التى دعت إلى ما لقيه الشيخ أبو العباس وشيخه أبو الحسن من الحفاوة البالغة ، والرعاية الفائقة ، من المصريين عند ما حلّا فى ديارهم . وكذلك ما لقيه ويلقاه غيرهما ممن هم على سمتهما . وذلك قبل أن أطلق القلم فى التحدث عما وُضعت الرسالة فى شأنه . فأقول :

* *

كان المصريون فى القرون الوسطى ينظرون إلى الوافدين على بلادهم من الأندلس وشمال أفريقية ، نظرة عطف وتقدير . وكانت لهؤلاء الوافدين منزلة حسنة فى نفوسهم ، إذ كانوا يتمتعون — متى حلوا فى ديارهم — بأفضل ما يتمتع به آمرؤ بين أهله وعشيرته . وكان السبب فى هذا العطف وهذا التقدير ، راجعا إلى أن المصريين كانوا يرون فى سكان الأندلس وأهالى شمال أفريقية ما يرونه فى الغزاة والمجاهدين فى سبيل الله ، العاملين على أن تكون كلمته هى العليا ، من الإجلال

والإكبار ، واعتبارهم من أبطال الإسلام . لأنهم كانوا إذ ذاك محوطين بالأعداء المغيرين، الذين يتحينون كل فرصة للاستيلاء على بلادهم ، وإجلائهم عن ديارهم. فهم كانوا مرابطين فى ثغر من أهم الثغور الإسلامية، التى يجب حفظها والدفاع عنها بالنفس والنفيس .

وهذه الحالة كان يقدرها المصريون حق قدرها، ويقدّسونها أكبر تقديس . لأن المصريين أنفسهم كانوا يشاركونهم فى هذه الصفة ، ويساندونهم فى هذه الحالة، فقد كانت الديار المصرية فى تلك العصور على ما كانت عليه بلاد الأندلس وديار المغرب، من التعرّض للغزو والاجتياح، لاسيما من غارات الصليبيين، وهجمات التتار والمغوليين . وكانت متتابعة حتى لاتكاد تنقطع. فكان المصريون مع أعدائهم فى تلك الأزمان ، فى الموقف الذى كان يقفه أولئك الإخوان .

✦

وقد عثرت على رسالة بعث بها "لويس التاسع" ملك فرنسا إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب، حينما وصل بأسطوله إلى المياه المصرية ، واحتل دمياط بجيوشه الجرارة فى ٢٠ و ٢١ صفر سنة ٦٤٧ هـ (١٢٤٩ م) وهى الحرب الصليبية السابعة، ومنها يتبين صدق الرأى فيما ذهبت إليه، وهذا نصها[١] :

... «أما بعد، فإنه لم يخف عنك أنى أمين الأمة العيسوية، كما أنى أقول إنك أمين الأمة المحمدية ، وإنه غير خاف عنك أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر، ونقتل منهم الرجال، ونرمل النساء ، ونستأسر البنات والصبيان ، ونخلى منهم الديار . وقد أبديت لك ما فيه الكفاية ، وبذلت لك النصح إلى النهاية. فلو حلفت لى بكل الأيمان ، ودخلت على القسوس والرهبان، وحملت قدامى الشمع طاعة للصلبان، ما ردنى ذلك عن الوصول إليك ، وقتالك فى أعز البقاع عليك، فإن كانت البلاد لى فياهدية حصلت فى يدى ،

(١) من كتاب "السلوك للمقريزى" .

وإن كانت البلاد لك والغلبة علىّ ، فيدك العليا ممتدة إلىّ ، وقد عرفتك وحذرتك ، من عساكر قد حضرت فى طاعتى تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا (١) » .

ومن هنا جاءت هذه العاطفة الكريمة ، وتجلت هذه الروح العالية ، التى كانت ترفرف عليهم جميعا ، وتؤلف بين قلوبهم ، وهى التى كانت تملى عليهم عواطف المودة والإخاء ، على تنائى الديار ، وتباعد الأقطار .

(١) ومن المعروف أنه فى سنة ٦٤٨ھ (١٢٥٠ م) وذلك فى عهد الملك المعظم توران شاه الأيوبى هزم المصريون جيش لويس التاسع فى منية أبى عبدالله غربى فارسكور ، ووقع هو وأخوته وكثير من ضباطه فى الأسر . فأودعهم توران شاه دار القاضى فخر الدين بن لقمان بالمنصورة ، ووكل بهم الطواشى صبيح المعظمى وأجرى عليهم الأرزاق الواسعة والرواتب السخية ، إلى أن سرحوا على الفداء ، وقدره فيما ذكر المقريزى ٤٠٠ ألف دينار . وقال الأستاذ عزيز خانكى بك فيما نشره بجريدة الأهرام بعددها الصادر فى ٩ مايو سنة ١٩٤٣ : أنه لبث فى السجن شهرا كاملا — من ٧ أبريل إلى ٧ مايو سنة ١٢٥٠ — ثم أخلى الملك المعظم سبيله وسبيل أخوته والبقية الباقية من جيشه ، مقابل تسليمه مدينة دمياط ، بعد أن احتلها ستة أشهر ، ودفعه سبعة ملايين من الفرنكات (٢٨٠٠٠٠ جنيه ذهب) وكثير ممن زاروا مدينة المنصورة شاهدوا الدار التى قيل إنها كانت سجنا لملك فرنسا لويس التاسع . قلت : والباقى من أثر هذه الدار بالمنصورة لايمت بصلة الى فخامتها فى تلك الأزمنة . فقد جار عليها الزمن كما جار على كثير من آثار العصور الاسلامية الزاهرة . وفى هذه الوقعة قال الصاحب جمال الدين بن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته * مقال نصح من قؤول فصيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها * تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم * ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم * بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفا لا يرى منهم * إلا قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أزمعوا عودة * لأخذ ثار أو لأمر قبيح
دار ابن لقمان على حالها * والقيد باق والطواشى صبيح

وكانت هذه هى الحرب الصليبية السابعة . أما الثامنة فقد قام بها لويس التاسع أيضا وهاجم تونس فمات هناك بالطاعون سنة ١٢٧٠ م .

ولا شك فى أن المصريين بطبيعتهم مرهفو الحس فى الاعتقاد الدينى ، ولهذا حظى عنـدهم الأندلسيون والمغاربة بمنزلة حسنة إلى الغاية ؛ وقد ساعد على ذلك أن الدين الإسلامى لا يعترف بحـدود أو حواجز بين الأمم والأجناس ، التى تعتنقه وتشهد بوحدانية الله تعـالى ، فهو أمة واحدة ، وجنسـية واحدة ، تستغرق الأمم والأجناس التى تنضوى تحت قول « لا إلٓه إلا الله محمد رسول الله » .

وقد علم الأندلسيون وغيرهم هذه العاطفة الكبرى ، ولمسوا ظواهرها وعواملها عند المصريين ، فأخذوا فى الاستفادة منها ، والانتفاع بفوائدها ، وأقبلوا على الوفود إلى الديار المصرية : حاجين ، أو متجرين ، أو لاجئين — دع الدعاة والفاتحين ، والدهاة والسياسيين — فكانوا بهـذا الروح يرون فى أهـل مصر " أهلا بأهل ، وجيرانا بجيران " .

وكان من هؤلاء الوافدين " الشيخ أبو الحسن الشاذلى " وصاحبـه " الشيخ أبو العباس المرسى " .

* *

ولأجل إتمـام البحث واستكماله ، وتناوله من جميع أطرافه ، رأيت أن أقدم الكلام عن الشـيخ أبى الحسن الشاذلى ، على الكلام عن الشيخ أبى العبـاس ، لأن الشاذلى أستاذه ، و به تخرج ، وعليـه تعلم ، وهو الذى هـداه إلى الطريق القـويم ، وأرشـده إلى الصراط المستقيم . فأقول ، ومن الله أستمد العـون ، وأرجو حسن القبول .

أبو الحسن الشاذلى

هو شيخ الطريقـة ، وعلم الحقيقة، العارف بالله ، تقى الدين أبو الحسن على ابن عبد الجبار ، الشريف الإدريسى الحسنى ، مؤسس الطائفة الشاذلية، وأستاذ أبى العباس المرسى . ينتهى نسبه إلى الأدارسة الحسنية سلاطين المغرب الأقصى .

كان مولده بقرية "غُمارة" من قرى أفريقية، بالقرب من مدينـة سَبْتة، فى نحو سنة ٥٩٣ ﻫ (١١٧٩ م) ولمـا بلغ سن التعلم تلقى علومه ومعارفه الإبتدائية على شيوخ بلده ، وحفظ القرآن الكريم وجوّده وأحسن تفهمه، ثم تاقت نفسـه إلى الإستزادة من المعارف فرحل إلى زَرْويلة قرب تونس وأخذ عن شيوخها ؛ ثم نزل شاذلة من قرى تونس، وتزوّد من علمائها، وصار يتردّد على مشيخة تلك الديار ويأخذ عنهم علوم الشريعة، وآداب الطريقة، ومبادئ السلوك .

وكان كثـير السياحات فى بلاد أفريقيـة ، فدخل القيروان وغيرها من المدن الحافلة بالعلمـاء والفضلاء، فتفتّحت له أبواب الحقائق ، واتّسعت أمامه سـبل الطرائق، وأقبل عليـه من أقاصى البـلاد وأدانيها، جمهـرة من علمائها وزهادها وأهل النسك فيها ، وصحبه منهـم أبو الحسن على بن مخلوف الصقلى، وأبو عبد الله الصابونى، وأبو محمد عبد العزيز الزيتونى، وأبو عبد الله البجائى الخياط، وأبو عبد الله الجارحى الخياط ، واختص بخدمته أبو العزائم ماضى .

ثم تابع رحلاته إلى المشرق؛ فدخل العراق، ولقى الشيوخ، واجتمع بطائفة من الصالحين، وحج مرارا. ثم صحب الشيخ عبد السلام بن مشيش[1]، والشيخ أبا عبد الله

(١) كان الشيخ عبد السلام بن مشيش من أكابر أهل الطريق ، وكان سيدا من ساداتهم ، داعيا إلى الله فى السر والعلن ، لا يخشى فى ذات الله لومة لائم . قال أبو العباس المرسى : مات الشيخ عبد السلام ابن مشيش مقتولا ، قتله ابن أبى الطواجن ببلاد المغرب . قلت : ودفن بسفح جبل الأعلام بتطوان ، وقبره لا يزال قبلة القاصدين للتبرك والزيارة والدعاء .

محمد بن حازم، وأخذ عنهما أصول السلوك، وأقام بتونس بعد أن أتقن علوما جمة من : نحو، وصرف، ولغـة، وبيان، وتفسير، وحديث، وفقه، وأصول، وتبحر فى الشريعـة ، وتخصص فى الحقيقة ؛ كما أجاد تفهم مبادئ القـوم وطرائقهم ، وتفقـه مناهجهم ، وتكشفت له أسرار سلوكهم؛ حتى كان يناظر فى شتى العـلوم ومختلف الفهوم، فكان قلبه مستودع الأسرار الربانية، وفؤاده منبع الحقائق العلوية.

وفى سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) التقى به الشيخ أبو العباس المرسى فى زاويتـه التى كان أنشأها بسفح جبل زغوان، فصحبه ولازمه وحظى عنده وتخرج به .

وكان يجتمع عليه فى تونس خلق كثير من عامة الناس وخاصتهم . فأوجس منه قاضى الجماعة — الفقيه أبو القاسم بن البراء — خيفة، فدخل إلى السلطان أبى زكريا وقال له : إن ههنا رجلا من أهل شاذلة سُراق الحمير، يدعى الشرف، وقد اجتمع إليه خلق كثير ، ويدعى أنه الفاطمى، ويشوش عليك فى بلادك. فعقد السلطان مجلسا من القاضى وغيره من جماعة الفقهاء ، وأمر باحضاره ومناظرته واستبانة أمره . فلما حضر حاولوا إعناته بالأسئلة ، فكان يجيب عن كل سؤال بلسان طلق وبيان بليغ ، وكان يوضح لهم ما غمض عليهـم من أسرار العلوم الشرعية، ومقاصد أهل الطريقـة ، حتى ألجمهم جميعا ؛ والسلطان يسمع كلامه من وراء حجابه ، ويعجب من أجوبته ، فقال لابن البراء : هذا رجل من أكابر الأولياء ، وما لكم به طاقة . ولخوف الفتنة من العامة، أرسـله السلطان عنـد الغروب صحبة أخيه أبى عبد الله اللحيانى إلى بيته مكرما معززا .

ثم أقام الشيخ بتونس أياما باع فى خلالها داره التى كان يسكنها بمسجد البلاط وأمر أصحابه بالتأهب للتـوجه إلى المشرق ؛ ولما خرج بصحبتـه من تونس علم السلطان بذلك، فخشى سوء القالة، وبعث إليه بالرجوع فقال لرسوله : قل للسلطان : ما خرجت إلا بنية الحج، ومتى قضى الله حاجتى أعود إن شاء الله تعالى .

وفى سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) ما كاد يصل إلى الإسكندرية حتى قبض عليه هو وصحبه، واعتقلوا بها أياما ثم أطلقوا. وكان السبب فى ذلك، أن ابن البراء كتب إلى سلطان مصر يقول له : إن هـذا الواصل إليكم شـوّش علينا بلادنا، وكذلك يفعل فى بلادكم. فاعتقله والى الإسكندرية، ثم تبين لأولى الأمر حقيقـة الحال فأطلقـــوه .

وحضر معه إلى مصر جماعة من العلماء والصالحين وعلى رأسهم : أبو العباس المرسى، وأخوه أبو عبد الله جمال الدين محمد، وخادمه الخاص أبو العزائم ماضى .

ثم حج الشـيخ أبو الحسن إلى بيت الله الحـرام، وعاد إلى تونس وأقام بهـا إلى أن لحـق به أبو العباس المرسى ، ثم وفـدوا جميعا إلى الديار المصرية للاقامة النهائية . وفى هذه المرّة حضر معــه أيضا جماعة أخرى، واتخذ الإسكندرية نُزُلا له ولصحبه وتديَّر بها دارا بإزاء قلعة الديماس المعروفة بكوم الدكة . وكان يلقى دروسه بجامع العطارين(١)، ويحضر عليه أجلاء العلماء، وأكابر الفضلاء، ويرشد المريدين، ويدعو إلى رب العالمين ، ويعقـد حلقات الذكر والوعظ والتهـذيب ؛ وكان الإقبال على دروســه عظيما جدا لا فـرق فى حضورها بين أفاضل الخاصـة وأذكياء العامة .

وفى هــذا الجامع قدّم الشيخ أبا العباس وأعلن خلافته له ، وأذن له فى إلقاء الدروس على طلابه وتلاميذه ، وأن يفقههم فى دينهم ، ويعلمهم مبادئ الشريعة وسبل الحقيقة ، ويرشدهم إلى الله تعالى . ثم أكثر بعد ذلك من الترحل بالبلاد ، والتنقل فى داخل الديار المصرية ، مبشرا بمبادئه ، ناشرا علومه ومعارفه .

---

(١) أوّل من عمر جامع العطارين بالإسكندرية ، أمير الجيوش أبو النجم بدر الجمالى متولى دولة المستنصر الفاطمى ، وكان قويا حازما ، أباد المفسدين وقهر الثائرين والمتغلبين . وكان محبا للعمارة ، مولعا بالبناء والتشييد . وله آثار جيدة بالقاهرة والاسكندرية ؛ وقد أنشأ هذا الجامع من أموال المصادرات ، وفرغ منه فى ربيع الأوّل سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) . وتوفى فى أوائل ذى الحجة سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٥ م) .

وكثيرا ما كان يلازمه الشيخ أبو العباس فى رحلاته، أو يلحق به فى إقاماته . ثم يعودان إلى الإسكندرية ، وكانت دروس الشيخ أبى الحسن بالمدرسة الكاملية (١) بالقاهرة مظهرا من مظاهر العظمة والجلال، فكانت لا تزال غاصة بأكابر العلماء، وفطاحل الفقهاء ، حافلة بعظماء الأئمة ، وكبراء الأمة، أمثال : الشيخ عز الدين ابن عبد السلام (٢)، والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد (٣)، والشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى (٤)، والشيخ أبى عمرو عثمان بن الحاجب (٥) ، وابن الصلاح (٦)، وابن عصفور (٧)،

(١) هذه المدرسة كانت بخط بين القصرين ، على رأس الشارع الموصل إلى بيت القاضى . أنشأها الملك الكامل الأيوبى سنة ٦٢٢ هـ (١٢٢٥ م) .

(٢) هو سلطان العلماء ، شيخ الاسلام الإمام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام . كان أحد أفراد الدهر علما وفضلا ، وكان قوى النفس لا يخشى فى الحق لومة لائم . وله مع السلطان الظاهر بيبرس وغيره مواقف مشهودة . وكان السلاطين يعظمونه ، ويهابونه ، ويخشون سطوة لسانه الصادق ، و يعملون بمشورته ، وكان من صفاته العفة ، والنزاهة ، والتقوى ، والورع . وكان مولده بدمشق سنة ٥٧٧ هـ . وتوفى بالقاهرة سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦١ م) .

(٣) هو شيخ الإسلام تقى الدين أبو الفتح محمد بن على (ابن دقيق العيد) القشيرى القوصى المصرى ، كان من أكابر العلماء ، وأفاضل الصالحين . وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول : الديار المصرية تفتخر برجلين فى طرفيها : ابن دقيق العيد بقوص ، وابن المنير بالاسكندرية . كان مولده فى سنة ٦٢٥ هـ . وتوفى سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) .

(٤) هو الحافظ الكبير زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى المنذرى المصرى . كان فى عصره عديم النظير فى علم الحديث على اختلاف فنونه . وكان أديبا بارعا ، وفى الفقه والعربية متبحرا . وكان من الورع والتقوى على جانب عظيم . ولد بمصر سنة ٥٨١ هـ . ومات بالقاهرة سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) .

(٥) له ترجمة مستقلة تأتى فى أواخر الكتاب .

(٦) هو العلامة الشيخ تقى الدين عثمان بن عبد الرحمن (ابن الصلاح) الشهرزورى الدمشقى . كان مفتى الشام ومحدثها ، وكان كثير الترحل فى طلب العلم والحديث ولقاء الشيوخ . وكان من شيوخ ابن خلكان . توفى بدمشق سنة ٦٤٣ هـ (١٢٤٦ م) .

(٧) هو أبو الحسن على بن مؤمن الأشبيلى النحوى (ابن عصفور) . كان من أكابر النحاة فى عصره . ولم يكن عنده من المعارف غير النحو على ما قيل . توفى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) .

وابن عوف[١]، وابن سُراقة[٢]، ومكين الدين الأسمر[٣]، وغيرهم. وهؤلاء كانوا سادة العلوم الشرعية والعرفية، وأمراء الفهوم الربانية. وكانوا يجلسون إليه، ويحتبون بين يديه، فى أدب جم، واحتشام كثير. ويستمعون إلى كلامه بآذان مصغية، ويعون أقواله بقلوب واعية، وأفهام صافية. وقد أثنوا عليه بما هو أهله، واعترفوا بتبحره وغزارة فضله.

رجع أبو الحسن مرة من الحج إلى الاسكندرية، فأتى إلى الإمام عز الدين ابن عبد السلام فى منزله قبل أن يذهب إلى بيته فقال له: الرسول صلى الله عليه وسلم يقرئك السلام. فاستصغر الشيخ عز الدين نفسه أن يكون أهلا لذلك. ثم دُعى الشيخ عز الدين إلى خانقاه الصوفية[٤] بالقاهرة، وحضر معه الشيخ محيي الدين ابن

---

(١) هو أبو الفتح نبيه الدين عثمان بن هبة الله (ابن عوف) العوفى الزهرى أحد شيوخ الاسكندرية وأفاضلها. توفى سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥م).

(٢) هو الشيخ الصالح محيي الدين أبو بكر محمد بن محمد بن إبراهيم (ابن سراقة) الأنصارى الشاطبى أحد الأئمة المشهورين بغزارة العلم، وكان من شيوخ دار الحديث الكاملية بالقاهرة. وله مؤلفات فى التصوف وغيره. توفى سنة ٦٦٢هـ (١٢٦٣م).

(٣) هو الشيخ الفاضل الورع الكامل، مكين الدين عبد الله بن منصور الأسمر، شيخ القراء بالاسكندرية، وكان من أرباب البصائر ومن النافذين إلى الله سبحانه وتعالى، وكان الشيخ أبو الحسن الشاذلى يقول عنه: بينكم رجل يقال له عبد الله بن منصور أسمر اللون أبيض القلب، وهو من السبعة الأبدال. قلت: ولما قرأته عنه وعرفته من حاله كنت أتمنى أن أعرف قبره لأزوره وأقرأ عليه شيئا من القرآن الكريم. فلما كنت بالاسكندرية فى شهر ربيع الأول من سنة ١٣٦٢ لمعاينة جامع أبى العباس المرسى والتحقق من المدفونين به، وزرت البوصيرى وياقوت العرشى، رأيت خلف مسجد ياقوت من الجهة الشرقية ضريحا صغيرا عليه سقيفة من الخشب، لا تليق بمقام ذلك الرجل الفاضل، وقد كتب على لوحة علقت على الضريح (هذا قبر سيدى محمد مكين الدين الأسمر) وهذا من الخطأ الفاحش الذى لا يصدر إلا عن جهل فاضح. ويا حبذا لو عنيت وزارة الأوقاف بشأن هذا الضريح وإظهاره بما يليق بصاحبه من الكرامة. وكانت وفاته فى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢م).

(٤) هذه الخانقاه — ومعناها بيت العبادة — كانت بخط الجمالية تجاه حارة المبيضة بجوار حمام الجمالية، وكانت فى الأصل دار الأستاذ قنبر أحد خدام قصر الخليفة المستنصر الفاطمى، وكان من المحنكين. وكان يلقب "سعيد السعداء". فلما استقر السلطان صلاح الدين الأيوبى فى مصر أحال هذه الدار إلى خانقاه برسم الصوفية ووقف عليها أوقافا. وهى أول خانقاه حدثت بالديار المصرية. توفى فى سنة ٥٦٩ هـ (١١٧٤م) وهو الأصح، لا كما ذكره على باشا مبارك من أنها حدثت سنة ٦٥٩ هـ. وكان أهلها يعرفون بالعلم والصلاح وينعت شيخها "بشيخ الشيوخ". وما زالت مشتهرة بخانقاه سعيد السعداء وبالخانقاه الصلاحية إلى أن تغيرت الأحوال وكثرت الخانقاوات بالقاهرة. ثم تحولت فى العهود العثمانية إلى تكايا.

سراقة ، وعلم الدين يس أحد أصحاب ابن عربى . فقال ابن سراقة للشيخ عز الدين : لِيَحفِظكُم ما سمعنا يا سيدى ! والله إن هذا شىء يُفرح به أن يكون فى هذا الزمن من يسلم عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال الشيخ عز الدين : الله يسترنا . فقال العلم يس : اللهم افضحنا حتى يتبين المحق من المبطل . ثم أشاروا إلى القَوال أن يقول — وكان بعيدا عنهم بحيث لم يسمع ما دار بينهم — فكان أول ما قال : « صدق المحدّث ، والحديث كما جرى » . فقام الشيخ عز الدين وطاب منه ، وقام الجمع لقيامه .

قال الشيخ مكين الدين الأسمر : حضرت بالمنصورة فى خيمة فيها الشيخ الامام مفتى الانام عز الدين بن عبد السلام ، والشيخ مجد الدين على بن وهب القشيرى (١) المدرّس ، والشيخ محيى الدين بن سراقة ، والشيخ أبو الحسن الشاذلى . ورسالة القشيرى تُقرأ عليهم ، وهم يتكلمون ، والشيخ أبو الحسن صامت ، إلى أن فرغ كلامهم . فقالوا : يا سيدى . نريد أن نسمع منك ؟ فقال : أنتم سادات الوقت وكبراؤه ، وقد تكلمتم ! فقالوا : لا بد أن نسمع منك ! فسكت الشيخ ساعة ثم تكلم بالأسرار العجيبة ، والعلوم الجليلة . فقام الشيخ عز الدين وخرج من صدر الخيمة وفارق موضعه وقال : إسمعوا هذا الكلام الغريب ، القريب العهد من الله .

وقال : مكثت أربعين سنة يشكل على الأمر فى طريق القوم ، فلا أجد من يتكلم عليه ويزيل عنى إشكاله ، حتى ورد الشيخ أبو الحسن الشاذلى ، فأزال عنى كل شىء أشكل علىّ . ورأيت الناس يدعون إلى باب الله ، وأبو الحسن يدخلهم على الله تعالى .

---

(١) هو الشيخ مجد الدين على بن وهب بن مطيع القشيرى والد تقى الدين بن دقيق العيد المالكى . كان شيخ أهل الصعيد فى زمنه وكان منزله بقوص . كان جامعا لفنون العلم موصوفا بالصلاح والتأله ، معظما فى النفوس . توفى عن ٨٦ سنة فى سنة ٦٦٧ هـ (١٢٦٨ م) .

وقال الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد : ما رأيت أعرف بالله من الشيخ الشاذلى .

وقال الشيخ تاج الدين بن عطاء الله السكندرى تلميذ أبى العباس المرسى : أبو الحسن الشاذلى قطب الزمان ، والحامل فى وقته لواء أهل العيان ، الشيخ الامام حجة الصوفية ، علم المهتدين ، زين العارفين ، أستاذ الأكابر ، والمتفرد فى زمنه بالمعارف السنية والمفاخر ، العالم بالله ، والدال على الله ، له السياحات الكثيرة ، والمنازلات الجليلة ، والعلوم الجمة ، لم يدخل فى طريق الله حتى كان يعد للمناظرة فى العلوم الظاهرة . ذو علوم كثيرة ، لم يختلف فى قطبانيته ذو قلب مستنير ، ولا عارف بصير . جاء فى هذا الطريق بالعجب العجاب ، وشرع فى علم الحقيقة الأطناب ، ووسع للسالكين الرحاب .

وقال : أخبرنى والدى قال : دخلت على الشيخ أبى الحسن الشاذلى فسمعته يقول : والله لقد تسألونى عن المسألة لا يكون لها عندى جواب ، فأرى الجواب مسطرا فى الدواة والحصير والحائط .

وقال الصلاح الصفدى[1] : كان الشاذلى ضريرا ، وهو رجل كبير القدر . كثير الكلام ، عالى المقام ، له نظم ونثر ، فيه متشابهات وعبارات يُتكلف له فى الاعتذار عنها .

قلت : لم يولد ضريرا ، وإنما أصيب فى أثناء أيامه بالماء فغشى على بصره .

وقيل لأبى الحسن : ما على وجه الأرض مجلس فى الفقه أبهى من مجلس الشيخ عز الدين بن عبد السلام . وما على وجه الأرض مجلس فى الحديث أبهى من

---

(١) هو العلامة المؤرخ الأديب الفقيه المتفنن أبو الصفا صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى المصرى كاتب الانشاء بالدولة المصرية بمصر ودمشق وحلب . وكانت له دروس جامعة بالجامع الأموى وله مؤلفات كثيرة جيدة . توفى بدمشق فى شوال سنة ٧٦٤ هـ (١٣٦٣ م) .

مجلس الشيخ زكى الدين عبد العظيم المنذرى . وما على وجه الأرض مجلس فى علم الحقائق أبهى من مجلسه .

وقد أخذ عنه فى مصر وصحبه جماعة لا يكادون يحصرون . نذكر منهم الشيخ مكين الدين الأسمر ، والشيخ القبَّارى[1] ، والشيخ عبد الحكيم ، والشيخ شرف الدين البونى ، والشيخ عبد الله اللقانى ، والشيخ عثمان التوريحى ، والشيخ أمين الدين جبريل ، وغيرهم كثيرون .

وكان فوق ما وهبه الله من جلائل المزايا ومحاسن الخلال ، كريم الأخلاق ، واسع المروءة ، جوادا بما يملك ، كثير العطف على الناس جميعا ، لا فرق عنده بين المسلم وغير المسلم ، كثير السعى فى مصالح الخلق ، ذا جاه عظيم عند الأمراء والعظماء وذوى الجاه ، مقبول الشفاعة لديهم .

أصاب بعض من عنده رمد فاستدعى كحالا يهوديا لمداواة ذلك المريض ، فقال له اليهودى : لا أستطيع أن أعالج ، فإنه جاء مرسوم من القاهرة أن لا يداوى أحد من الأطباء إلا بإذن من مُشارف الطب بالقاهرة . فلما خرج اليهودى قال الشيخ لخدامه : هيئوا أسباب السفر . وسافر من وقته إلى القاهرة ، ثم حضر

---

(١) هو الشيخ الصالح أبو القاسم محمد بن منصور بن يحيى (القبارى) المالكى الاسكندرانى ، كان معروفا بالزهد والورع ، شديد الردع للولاة عن الظلم ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر . وكان له غيط يقيم فيه و يزرعه و يعمل فيه بيده و يقتات منه ، و يطعم الناس من ثماره . وكان الولاة يسمعون كلامه و يطيعونه لصدق لهجته وكمال زهده . وكان يكلم الناس من طاقة منزله وهم مسرورون بذلك راضون عنه . يحكى أنه باع دابة له من رجل فلما كان بعد أيام جاء إليه الرجل وقال له : ياسيدى إن الدابة التى اشتريتها منك لاتأكل عندى شيئا . فنظر إليه الشيخ وقال له : ماذا تعانى من الأسباب؟ فقال : إنى رقاص عند الوالى . فقال له : إن دابتنا لا تأكل الحرام . ثم دخل منزله وأعطاه دراهمه ومعها دراهم كثيرة قد اختلطت بها فلا تميز . فكان الناس يشترون من الرقاص كل درهم بثلاثة لأجل البركة . وأخذ دابته . ولما توفى ترك من الأساس ما يساوى خمسين درهما فبيع بعشرين ألفا . وكانت وفاته بظاهر الإسكندرية عن خمس وسبعين سنة فى ٦ شعبان سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٤ م) . وقد ألف ناصر الدين بن المنير كتابا فى ترجمته . وكان مسجده صغيرا بجدده و وسعه المرحوم محمد سعيد باشا فى عهد ولايته على مصر . وقبره فيه يقصد للزيارة والتبرك .

إلى الإسكندرية والإذن فى يده، ولم يبت بها ليلة واحدة — كما قيل — ثم دعا اليهودى وأمره بالعلاج ، وأخرج له الإذن . فأكثر اليهودى التعجب من هذا الخلق الكريم . ثم أخذ فى شأنه .

وكان من صفته أنه آدم اللون ، نحيف الجسم ، طويل القامة ، خفيف العارضين، طويل أصابع اليدين، كأنه حجازى، مع فصاحة اللسان، وعذوبة الكلام. وكان يلبس فاخر الثياب ، ويركب فاره الدواب ، ويتخذ الخيل الجياد . وكذلك كان تلميذه أبو العباس ، فقد كان كل منهما لا يعجبه لبس الزى الذى اصطلح عليه الفقراء ، ولا المرقعات التى يتدثر بها أهل الطريق . لأن هذا اللباس فى رأيهما ينادى على صاحبه : أنا الفقير فاعطونى شيئا ، وينادى على سر الفقير بالإفشاء . فمن لبس الزى واتخذ المرقعة فقد ادعى .

وكان كلامه لا يزال متجها نحو العقل الأكبر ، والروح الأنور، والقلم الأعلى، والقدس الأبهى، والإسم الأعظم، والكبريت الأحمر، والياقوت الأزهر، والأسماء، والحروف، والدوائر، ومقامات الأولياء الموقنين، والأملاك المقربين، وعلوم الأسرار، وأمداد الأذكار، ويوم المقادير، وشأن التدبير، وعلم البدء، وعلم المشيئة، وشأن القبضة ، ورجال القبضة، وعلوم الأفراد، وما سيكون يوم القيامة من أفعال الله مع عباده من حلمه وإنعامه، ووجوه انتقامه .

ومازال قائما بأمر الله، مضطلعا بالدعوة إلى الله، وإذاعة مبادئه العالية، وتعاليمه السامية، مهذبا للنفوس ، مقوّما للأخلاق ، مقصودا بالزيارة من مختلف البلدان. والعلماءُ والطلابُ مقبلون عليه أينما حل وحيثما رحل ، ويتلقون عنه برغبة صادقة، وهمة فائقة ، إلى أن كانت سنة ٦٥٦ ﻫ (١٢٥٨م) . إذ اعتزم الحج إلى بيت الله الحرام، فصحب معه جماعة من أخدانه وعلى رأسهم الشيخ أبو العباس المرسى ، والشيخ أبو العزائم ماضى خادمه الخاص . فلما توسط بأصحابه الطريق من صحراء عيذاب مرض مرضا شديدا انتقل بعده إلى رحمة الله تعالى .

قال ابن بطوطة : أخبرنى الشيخ ياقوت العرشى عن شيخه أبى العباس المرسى أن أبا الحسن كان يحج فى كل سنة، ويجعل طريقه على صعيد مصر، ويجاور بمكة شهر رجب وما بعده إلى انقضاء الحج، ويزور القبر الشريف ويعود على الدرب الكبير إلى بلده. فلما كان فى بعض السنين، وهى آخر سنة خرج فيها، قال لخديمه: استصحب فأسا وقفة وحنوطا وما يجهز به الميت؟ فقال له : ولماذا ياسيدى؟ فقال له : فى حُميثرا[1]، سوف ترى!

فلما بلغ حميثرا اغتسل الشيخ أبو الحسن وصلى ركعتين وقبضه الله فى آخر سجدة من صلاته ودفن هناك . قال ابن بطوطة : وقد زرت قبره وعليه قبريّة مكتوب فيها اسمه ونسبه متصلا بالحسن بن على رضى الله عنهما .

وكان الشيخ بدر الدين بن جماعة[2]، يرى أنه فى بركة الشيخ أبى الحسن فى مصر. وكان يفتخر بصحبته، وبحضور جنازته، والصلاة عليه بحميثرا .

ولما توفى الشيخ، قام أصحابه وعلى رأسهم الشيخ أبو العباس بتجهيزه والصلاة عليه وموارانه التراب فى قبره، الذى لايزال معروفا به إلى هذه الغاية وهى سنة١٣٦٢هـ (١٩٤٣م)، وللعرب هناك عناية به، واعتقاد فيه. وهم يقيمون له فى كل سنة مولدا حافلا . عليه رحمة الله ورضوانه .

وقد انتشرت طريقته الشاذلية فى جميع الأقطار الإسلامية . وهى مستمدّة من منابع الشريعة، ممزوجة بروح الحقيقة .

---

(١) قال ابن بطوطة : وحميثرا فى صعيد مصر فى صحراء عيذاب، وبها عين زعاق، وهى كثيرة الضباع .

(٢) هو قاضى القضاة الشيخ الأجل بدر الدين أبو عبدالله محمد بن إبراهيم بن سعد الله (ابن جماعة) الكنانى الحموى الشافعى . ولد بحماة فى سنة ٦٣٩ هـ . وكان عمره يوم وفاة الشيخ أبى الحسن ١٧ سنة . طال عمره وتقلب فى عدة مناصب فى الدولة المصرية بين خطابة وتدريس وقضاء وإفتاء بالشام ومصر . وكان قوى المشاركة فى علوم عدة من تفسير وحديث وأصول وفقه، مع التقوى والورع والنهوض بأعباء مناصبه بالهمة والصدق، وكان على بلاغة وحسن بيان وارتجال للخطب البارعة بالأسلوب الحسن . وله تصانيف جيدة فى الأحكام وعلوم الحديث ورسالة فى الكلام على الأسطرلاب . وكانت وفاته فى سنة٧٣٣هـ (١٣٣٣م) . كما فى حسن المحاضرة، وقد أرّخ ابن شاكر وفاته فى سنة ٧٧٣هـ . والأول أصح .

وقد أجمع كثير من المؤرخين الذين عاصروه أو دونوا أخباره، على أنه لم يؤلف كتابا قط . غير أن الصلاح الصفدى قد شذ عن ذلك وزعم أنه كانت له مصنفات . قلت : وقد ظهرت بعد وفاته بزمن بعض الكتب منسوبة إليه . والمتبادر أن بعض أصحابه تلقوها عنه ونشرها من بعدهم بعض المريدين . فما وقفت عليه منها : "رسالة السر الجليل ، فى خواص حسبنا الله ونعم الوكيل" ، و "حزب البر" و "حزب البحر" و "حزب النور" و "الأذكار العلية والأسرار الشاذلية" و "رسالة فى التصوف" و "الحزب الكبير" . قال الصلاح الصفدى : وللشيخ تقى الدين ابن تيمية مصنف فى الرد على ما قاله الشاذلى فى حزبه . قلت : وللعلامة السيد محمد مرتضى الزبيدى صاحب تاج العروس شرح كبير على هذا الحزب سماه "تنبيه العارف البصير على أسرار الحزب الكبير" .

وعليه أيضا شرح للعلامة ابن ماخلا[1] ، سماه "اللطيفة المرضية بشرح حزب الشاذلية" وله غير ذلك أحزاب وأوراد وأدعية حسنة .

وللشيخ الحافظ شمس الدين الذهبى[2] ، ملاحظات على بعض ما جاء فى هذه المصنفات المنسوبة إليه .

---

(١) هو الشيخ الامام داود بن عمر الكهارى (ابن ماخلا) المالكى الإسكندرى الشاذلى . كان من أئمة فقهاء المالكية . وقد كان حاجبا بالمحكمة الشرعية ثم صار كاتب جلسة ، وكان يدرس بجامع العطارين ، وله مؤلفات حسنة . توفى بالإسكندرية سنة ٧٣٣هـ (١٣٣٣م) . ودفن فى قبر أقام عليه مريدوه زاوية بشارع تاج الدين العادلى ، وهى معروفة عند عوام أهل الاسكندرية بزاوية سيدى داود الباخل .

(٢) هو الحافظ الجليل الشيخ شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبى الدمشقى الشافعى . كان علامة زمانه فى الحديث ونقد الرجال . وله فى ذلك المصنفات النافعة ، وله فى التاريخ كتاب كبير هو "تاريخ الإسلام" . كان مولده بدمشق سنة ٦٧٣هـ . وتوفى بمصر سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) .

المأثور من نفيس كلامه

وللشيخ أبى الحسن كلام جيد فى إشاراته ، حسن فى عباراته ، انتزع من أصول الحقيقة ، وصار دستورا لأهل الطريقة ، رست أصوله فى الشريعة ، وسمقت فروعه فكانت إلى الحق ذريعة ، وهى نفائس ودرر ، ومواعظ وعبر . و إليك ما اخترته منها :

قال رحمه الله تعالى :

١ — عليك بالاستغفار و إن لم يكن هناك ذنب ، واعتبر باستغفار النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد البشارة واليقين بمغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر . هذا فى معصوم لم يقترف ذنبا قط ، وتقدس عن ذلك ، فما ظنك بمن لا يخلو عن العيب والذنب فى وقت من الأوقات .

٢ — إذا عارض كشفُك الكتابَ والسنةَ ، فتمسك بالكتاب والسنة ، ودع الكشف ، وقل لنفسك إن الله تعالى قد ضمن لى العصمة فى الكتاب والسنة ، ولم يضمنها لى فى جانب الكشف ، ولا الإلهام ، ولا المشاهدة . مع أنهم أجمعوا على أنه لا ينبغى العمل بالكشف ولا الإلهام ولا المشاهدة ، إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة .

٣ — إذا جاذبتك هواتف الحق ، فإياك أن تستشهد بالمحسوسات على الحقائق الغيبيات وتردها ، فتكون من الجاهلين ، واحذر أن تدخل فى شىء من ذلك بالعقل .

٤ — إذا عرض لك عارض يصدك عن الله فاثبت . قال الله تعالى : ﴿ يَٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

٥ — كل علم تسبق إليك فيه الخواطر ، وتميل إليه النفس ، وتلتذ به الطبيعة ، فارم به و إن كان حقا . وخذ بعلم الله الذى أنزله على رسوله ، واقتد به و بالخلفاء والصحابة والتابعين من بعده ، و بالأئمة الهداة المبرئين عن الهوى ومتابعته . تسلم

من الشكوك، والظنون، والأوهام، والدعاوى الكاذبة المضلة عن الهدى وحقائقه. وماذا عليك أن تكون عبدالله ولا علم ولا عمل! وحسبك من العلم العلمُ بالوحدانية. ومن العمل محبةُ الله، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، ومحبة الصحابة، واعتقاد الحق للجماعة. قال رجل: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: لاشيء إلا أنى أحب الله ورسوله! فقال: المرء مع من أحب.

٦ — إذا كثرت عليك الخواطر والوساوس فقل: سبحان الملك الخلاق: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾.

٧ — لا تجد الروح والمدد، ويصح لك مقام الرجال، حتى لا يبقى فى قلبك تعلق بعلمك ولا جدّك ولا اجتهادك، وتيأس من الكل دون الله تعالى.

٨ — من أحصن الحصون من وقوع البلاء على المعاصى، الاستغفار. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾.

٩ — إذا ثقل الذكر على لسانك، وكثر اللغو فى مقالك، وانبسطت الجوارح فى شهواتك، وانسد باب الفكرة فى مصالحك، فاعلم أن ذلك من عظيم أوزارك، أو لكون إرادة النفاق فى قلبك؛ وليس لك طريق إلا الطريق والإصلاح والاعتصام بالله، والإخلاص فى دين الله تعالى، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ولم يقل: من المؤمنين. فتأمل هذا الأمر إن كنت فقيها.

١٠ — إرجع عن منازعة ربك تكن موحدا، واعمل بأركان الشرع تكن سُنّيا، واجمع بينهما تكن محققا.

١١ — مَن أحب أن لا يُعصى الله فى مملكته، فقد أحب أن لاتظهر مغفرته ورحمته، وأن لا يكون لنبيه صلى الله عليه وسلم شفاعة.

١٢ — أسباب القبض ثلاثة: ذنب أحدثته، أو دنيا ذهبت عنك، أو شخص يؤذيك فى نفسك أو عرضك؛ فإن كنتَ أذنبتَ فاستغفر الله، وإن

كنتَ ذهبتْ عنك الدنيا فارجع إلى ربك ، و إن كنت ظُلِمْت فاصبر واحتمل . هذا دواؤك . و إن لم يطلعك الله تعالى على سبب القبض ، فاسكن تحت جريان الأقدار، فإنها سحابة سائرة .

١٣ — الشيخ من دلك على الراحة، لا من دلك على التعب .

١٤ — من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو بِدْعِيٌّ .

١٥ — من آداب المجالس للأكابر، التخلى عن الأضداد ، والميل والمحبة والتخصيص لهم، وترك التجسس على عقائدهم .

١٦ — إذا جالست العلماء فلا تحدّثهم إلا بالعلوم المنقولة والروايات الصحيحة : إما أن تفيدهم، و إما أن تستفيد منهم . وذلك غاية الربح منهم. و إذا جالست العباد والزهاد فاجلس معهم على بساط الزهد والعبادة، وحَلِّ لهم ما استمرؤه، وسهل عليهم ما استوعروه ، وذوّقهم من المعرفة ما لم يذوقوه . و إذا جالست الصديقين ففارق ما تعلم، تظفر بالعلم المكنون .

١٧ — إذا لم يواظب الفقير على حضور الصلوات الخمس فى الجماعة فلا تعبأ به .

١٨ — من غلب عليه شهود الإرادة تفسخت عزائمه لسرعة المراد وكثرته واختلاف أنواعه ، وأى وقفة تسعه حتى يحل أو يعقد أو يعزم أو ينوى شيئا من أموره؟ مع تعداد إراداته ، واضمحلال صفاته؟ أين أنت من نور من نظر واتسع نظره بنور ربه، ولم يشغله المنظور إليه عمن نظر به . فقال : « ما من شيء كان أو يكون إلا وقد رأيته » (الحديث) .

١٩ — إذا استحسنت شيئا من أحوالك الباطنة أو الظاهرة وخفت زواله فقل ﴿ مَاشَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ ﴾ .

٢٠ — وِرد المحققين إسقاط الهوى ومحبة المولى . أبت المحبة أن تستعمل محبا لغير محبوبه . وأخرى : وِرد المحققين رد النفس بالحق عن الباطل فى عموم الأوقات.

٢١ — لا يتم للعالم سلوك طريق القوم إلا بصحبة أخ صالح، أو شيخ ناصح.

٢٢ — لا تؤخر طاعات وقت لوقت آخر. فتعاقب بفـواتها أو فوات غيرها أو مثلها، جزاء لما ضُيّع من ذلك الوقت. فان لكل وقت سهما. فحق العبودية يقتضيه الحق منك بحكم الربوبيـة. وأما تأخير عمر رضى الله عنـه الوتر الى آخر الليل، فتلك عادة جارية، وسنة ثابتة، ألزمه الله تعالى إياها مع المحافظة عليها. وأنّى لك بها مع الميل إلى الراحات، والركون الى الشهوات، والغفلة عن المشاهدات !؟ فهيهات هيهات !

٢٣ — من أراد عز الدارين. فليدخل فى مذهبنا يومين. فقال له القائل: كيف لى بذلك؟ فقال: فرّق الأصنام عن قلبك، وأرح من الدنيا بدنك. ثم كن كيف شئت. فإن الله تعالى لا يعذب العبد على مدّ رجليه مع استصحاب التواضع، للاستراحة من التعب، وإنما يعذبه على تعب يصحبه التكبر.

٢٤ — ليس هذا الطريق بالرهبانية، ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر على الأوامر، واليقين فى الهداية. قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾.

٢٥ — من لم يزدد بعلمه عمله افتقارا إلى ربه، وتواضعا لخلقه، فهو هالك.

٢٦ — سبحان من قطع كثيرا من أهل الصـلاح عن مصلحتهم، كما قطع المفسدين عن موجدهم.

٢٧ — إلزم جماعة المؤمنـين وإن كانوا عصاة فاسقين. وأقم عليهم الحـدود واهجرهم رحمة بهم، لا تعززا عليهم وتقريعا لهم.

٢٨ — كل من طعام فسقة المسلمين، ولا تأكل من طعام رهبان المشركين، وانظر إلى الحجر الأسود فإنه ما سُوِّدَ إلا من مَسّ أيدى المشركين دون المسلمين [(١)].

(١) هذه الكلمة تنظـر الى قول الجاحظ وهو يندد بالحشوية من المحدثين حيث ذكر الحجر الأسود فقال: إنه كان أبيض فسوّده المشركون، وكان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا ... ! ؟

٢٩ — سمعت هاتفا يقول : كم تدندن مع من يدندن وأنا السميع القريب ، وتعريفي يغنيك عن علم الأولين والآخرين، ما عدا علم الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلم النبيين عليهم الصلاة والسلام .

٣٠ — وقيل له مرة : من شيخك ؟ فقال : كنت أنتسب إلى الشيخ عبد السلام بن مشيش، وأنا الآن لا أنتسب إلى أحد . بل أعوم فى عشرة أبحر: خمسة سماوية، وخمسة أرضية .

٣١ — من علم اليقين بالله تعالى، و بمالك عند الله تعالى: أن تتعاطى من الخلق ما لا تصْغُر به عند الحق تعالى مما تكرهه النفوس القوية، كحمل متاعك من السوق، وجمع الحطب للطعام وجعله على رأسك ، والمشى مع زوجتك إلى السوق فى حاجة من حوائجها، وركوبك خلفها على الحمار وغيره . وأما ما تصغر به فى أعين الخلق مما للشرع عليه اعتراض، فليس من علم اليقين . فلا ينبغى لك ارتكابه .

٣٢ — الصادق الموقن، لو كذبه أهل الأرض لم يزدد بذلك إلا تمكينا .

٣٣ — ما ثم كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة . فمن أعطيهما وجعل يشتاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ فى العلم بالصواب . كمن أكرم بشهود الملك، فاشتاق إلى سياسة الدواب .

٣٤ — كل كرامة لا يصحبها الرضا من الله وعن الله ، والمحبة لله ومن الله ، فصاحبها مُستدرَج مغرور . أو ناقص هالك مثبور .

٣٥ — سمعت هاتفا يقول : إن أردتَ كرامتى فعليك بطاعتى، و بالإعراض عن معصيتى .

٣٦ — لا تركن إلى علم ولا مدد ، وكن بالله ، واحذر أن تنشر علمك ليصدّقك الناس ، وانشر علمك ليصدّقك الله تعالى .

٣٧ — العلوم على القلوب كالدراهم والدنانير فى الأيدى ، إن شاء الله تعالى نفعك بها، و إن شاء ضرك .

٣٨ — من أقبل على الخلق الإقبالَ الكلىَّ قبل بلوغ درجات الكمال ، سقط من عين الله تعالى . فاحذروا هذا الداء العظيم ، فقد تعلق به خلق كثير ، وقنعوا بالشهرة وتقبيل اليد . فاعتصموا بالله يُهدكم الله الطريقَ المستقيم .

٣٩ — من الشهوة الخفيــة للولى إرادته النصرة على من ظلمــه . قال تعالى للمعصوم الأكبر : ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ . أى فإن الله تعالى قد لا يشاء إهلاكَهُمْ .

٤٠ — إذا أردت الوصــول إلى الطريق التى لا لوم فيهــا ، فليكن الفــرق فى لسانك موجودا ، والجمع فى سرك مشهودا .

٤١ — كل اسم تُستدعَى به نعمة ، أو تُستكفَى به نقمة ، فهو حجاب عن الذات ، وعن التوحيــد بالصفات ، وهذا لأهل المراتب والمقامات . وأما عوام المؤمنين فهم عن ذلك معزولون ، و إلى حدودهم يرجعون ، ومن أجورهم من الله لا يُبْخَسُون .

٤٢ — لو علم نوح عليه السلام، أن فى أصــلاب قومه من يأتى يوحد الله عز وجل، ما دعا عليهم . ولكان قال : « اللهم آغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » . كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فكل منهما على علم و بينة من الله تعالى .

٤٣ — لا أجْرَ لمن أخذ الأجر والرشا على الصــلاة والصيام ، وتنعّــم بمطامح تلك الأبصار ، عند إطراق الرءوس والاشتغال بالأذكار . وجناية هؤلاء بالإضافات و رؤية الطاعات . أكثر من جنايتهم بالمعاصى وكثرة المخالفات . وحسبهم ما يظهر عليهــم من الطاعات ، و إجابة الدعوات ، والمسارعة إلى الخــيرات . ومَن أبغض الخــلق إلى الله تعــالى ممن تملق إليه فى الأسحار بالطاعات ليطلب مسرته بذلك . قال تعالى : ﴿ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ .

٤٤ — إذا أهان الله عبدا كشف له حظوظ نفسه ، وستر عنه عيوب دينه . فهو يتقلب فى شهواته حتى يهلك ولا يشعر .

٤٥ — مِن الأولياء مَن يسكر من شهود الكأس ولم يذق بعد شيئا . فما ظنك بعــد ذوق الشراب ، وبَعْدَ الرِّىّ . واعلم أن الرى قل من يفهم المراد به ، فإنه مَزْج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق ، والأنوار بالأنوار ، والأسماء بالأسماء ، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال . وأما الشرب فهو سُقيا القلب والأوصال والعروق من هــذا الشراب حتى يسكر . وأما الكأس فهو معرفة الحق التى يعــرف بهــا من ذلك الشراب الطهور المخلَص الصافى لمن شاء من عبــاده المخصوصين . فتارة يشهد الشارب تلك الكأس صورة ، وتارة يشهدها معنوية ، وتارة يشهدها علمية . فالصورة حظ الأبدان والأنفس ، والمعنوية حظ القــلوب والعقول ، والعلمية حظ الأرواح والأسرار . فياله من شراب ما أعذبه ، فطوبى لمن شرب منه .

٤٦ — إياك والوقوع فى المعصية المرة بعد المرة ، فإن من تعدّى حدود الله فهو الظالم ، والظالم لا يكون إماما . ومن ترك المعاصى وصبر على ما ابتلاه الله ، وأيقن بوعد الله ووعيده، فهو الإمام ، وإن قلت أتباعه .

٤٧ — مريد واحد يصلح أن يكون محــلا لوضع أسرارك ، خير من ألف مريد لا يكون محلا لوضع أسرارك .

٤٨ — إننا ننظر إلى الله تعالى ببصائر الإيمــان والإيقان ، فأغنانا بذلك عن الدليل والبرهان، وصرنا نستدل به تعــالى على الخلق، هل فى الوجود شىء سوى الملك المعبود الحق؟ فلا نراه . وإن كان ولا بد من رؤيتهم فتراهم كالهباء فى الهواء، إن مسستهم لم تجد شيئا .

٤٩ — إذا امتلأ القلب بأنوار الله تعالى عميت بصيرته عن المناقص والمذام المقيدة فى عباده المؤمنين .

٥٠ — ذهب العمى وجاء البصر : بمعنى . فانظر إلى الله تعالى فهو لك مأوى ، فإن تنظر فبه ، و إن تسمع فمنه ، و إن تنطق فعنه ، و إن تكن فعنده ، و إن لم تكن فلا شىء غيره .

٥١ — البصيرة كالبصر، أدنى شيء يقع فيه يعطل النظر، وإن لم ينته الأمر إلى العمى. فالخطرة من صفات الشر تشوّش نظر البصيرة، وتكدر الفكرة والإرادة، وتذهب بالخير رأسا. والعمل به يذهب بصاحبه عن سهم من الإسلام، فإن استمر على الشر تفلّت منه الإسلام سهما سهما، فإذا انتهى إلى الوقيعة فى العلماء والصالحين، وموالاة الظالمين، حبا للجاه والمنزلة عندهم، فقد تفلت منه الإسلام كله، ولا يغرنك ما توسم به ظاهرا، فانه لا روح له، فإن روح الإسلام حب الله ورسوله، وحب الآخرة، والصالحين من عباده.

٥٢ — التصوف تدريب النفس على العبودية، وردّها لأحكام الربوبية.

٥٣ — من آدّعى فتح عين قلبه وهو يتصنع بطاعة الله، أو يطمع فيا فى أيدى خلق الله تعالى فهو كاذب.

٥٤ — الصوفى يرى وجوده كالهباء فى الهواء، غير موجود ولا معدوم. حسبما هو عليه فى علم الله.

٥٥ — الحقائق هى المعانى القائمة فى القلوب، وما آتضح لها وانكشف من الغيوب، وهى مِنَحٌ من الله تعالى وكرامات، وبها وصلوا إلى البرّ والطاعات. ودليلها قوله لحارثة: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت مؤمنا حقا (الحديث).

٥٦ — من تحقق الوجود فَنِيَ عن كل موجود، ومن كان بالوجود ثبت له كل موجود.

٥٧ — حقيقة زوال الهوى من القلب، حب لقاء الله تعالى فى كل نَفَس، من غير اختيار حالة يكون المرء عليها.

٥٨ — لن يصل العبد إلى الله تعالى و يبقى معه شهوة من شهواته، ولا مشيئة من مشيآته.

٥٩ — الأولياء يغنون عن كل شيء بالله تعالى، وليس لهم معه تدبير ولا اختيار، والعلماء يدبرون ويختارون وينظرون و يقتبسون، وهم مع عقولهم وأوصافهم دائمون. والصالحون — وإن كانت أجسادهم معرَّسة — ففى أسرارهم الكزازة والمنازعة.

ولا يصلح شرح أحوالهم إلا اولى فى نهايته . فحسبك ما ظهر من صلاحهم ، واكتف به عن شر ما بطن من أحوالهم .

٦٠ — لا تختر من الأمر شيئا ، واختر أن لا تختار ، وفر من ذلك المختار فرارك من كل شيء إلى الله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ . وكل مختارات الشرع وترتيباته فهى مختار الله . ليس لك منه شيء ، ولا بد لك منه ، واسمع وأطع . وهـذا موضع الفقه الربانى والعلم الإلهى ، وهو أرضٌ لعلم الحقيقة المأخوذة عن الله تعالى لمن استوى . فافهم .

٦١ — لا ترق قبل أن يُرقى بك فتزل قدمك .

٦٢ — أشق الناس من يعترض على مولاه ، وأُركس فى تدبير دنياه ، ونسى المبدأ والمنتهى والعمل لأخراه .

٦٣ — مراكز النفس أربعة : مركز للشهوة فى المخالفات ، ومركز للشهوة فى الطاعات ، ومركز فى الميل إلى الراحات ، ومركز فى العجز عن أداء المفروضات : ﴿ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ﴾ .

٦٤ — إن من أعظم القربات عند الله تعالى مفارقة النفس بقطع إرادتها ، وطلب الخلاص منها بترك ما تهوى لما يرجى من حياتها .

٦٥ — إن من أشـق الناس من يحب أن يعامله الناس بكل ما يريد ، وهو لا يجـد من نفسه بعض ما يريد . طالب نفسـك باكرامك لهم ، ولا تطالبهـم باكرامهم لك . ﴿ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ .

٦٦ — قد يئست من منفعة نفسى لنفسى ، فكيف لا أيأس من منفعة غيرى لنفسى ، ورجوت الله لغيرى فكيف لا أرجوه لنفسى .

٦٧ — إذا أردت أن لا يصدأ لك قلب ، ولا يلحقك هم ولا كرب ، ولا يبق عليـك ذنب ، فأكثر من قول : سبحان الله وبحمـده ، سبحان الله العظيم ، لا إله إلا الله ، اللهم ثبت علمها فى قلبى ، واغفر لى ذنبى .

٦٨ — لا كبيرة عندنا أكبر من اثنين: حب الدنيا بالإيثار، والمُقام على الجهل بالرضا؛ لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة، والمقام على الجهل أصل كل معصية.

٦٩ — إذا أردت أن تصح على يديك الكيمياء فاسقط الخلق من قلبك، واقطع الطمع من ربك أن يعطيك غير ما سبق لك، ثم امسك ماشئت يكن كما تريد.

٧٠ — إذا أردت أن تكون مرتبطا بالحق، فتبرأ من نفسك، واخرج عن حولك وقوتك.

٧١ — إذا أردت الصدق فى القول، فأكثر من قراءة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾. وإن أردت الإخلاص فى جميع أحوالك، فأكثر من قراءة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وإن أردت تيسير الرزق فأكثر من قراءة. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾. وإن أردت السلامة من الشر فأكثر من قراءة. ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

٧٢ — أربع لا ينفع معهم علم: حب الدنيا، ونسيان الآخرة، وخوف الفقر، وخوف الناس.

٧٣ — أصدق الأقوال عند الله تعالى قول: ﴿لا إله إلا الله﴾ على النظافة، وأدل الأعمال على محبته تعالى لك بغض الدنيا، واليأس من أهلها على الموافقة.

٧٤ — لا تسرف بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها، وتحل أعضاؤك لها. فترجع لمعانقتها بعد الخروج منها بالهمة، أو بالفكرة، أو بالإرادة، أو بالحركة.

٧٥ — لا تقوى لمحب الدنيا، إنما التقوى لمن أعرض عنها.

٧٦ — إذا توجهت لشيء من عمل الدنيا أو الآخرة فقل: يا قوى يا عزيز، يا عليم يا قدير، يا سميع يا بصير.

٧٧ — إذا ورد عليك مزيد من الدنيا أو الآخرة فقل: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾.

٧٨ — خصلة واحدة إذا فعلها العبد صار إمام الناس من أهل عصره، وهى: الإعراض عن الدنيا، واحتمال الأذى من أهلها.

٧٩ — إذا تداين أحدكم فليتوجه بقلبه إلى الله تعالى و يتداين على الله تعالى، فإن كل ما تداينه العبد على الله تعالى ، فعلى الله أداؤه .

٨٠ — إذا عارضك عارض من معلوم هُولك، فاهرب إلى الله منه هروبك من النار . وهذه غرائب علوم المعرفة فى علوم المعاملة .

٨١ — وكان إذا تداين يقول : اللهم عليك تداينت ، وعليك توكلت ، و إليك أمرى فوضت .

٨٢ — خصلة واحدة تحبط الأعمال،ولايتنبه لها كثير من الناس، وهى سخط العبد على قضاء الله تعالى . قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ .

٨٣ — لا يترك منازعة الناس فى الدنيا إلا المؤمن بالقسمة .

٨٤ — رأيت فى النوم صائحا يصيح فى جوّ السماء : إنما تساق لرزقك ، أو لأجلك ، أو لما يقضى به الله عليك، أو بك، أولك . وهى خمسة لاسادس لها.

٨٥ — كل حسنة لا تثمر نورا أو علما فى الوقت ، فلا تعد لها أجرا . وكل سيئة أثمرت خوفا من الله تعالى و رجوعا إليه ، فلا تعد لها و زرا .

٨٦ — حسنتان لا تضر معهما كثرة السيئات : الرضا بقضاء الله، والصفح عن عباد الله .

٨٧ — إياك أن تقف مع الخلق ! بل أقف المضار والمنافع عنهم ، لأنها ليست منهم ، واشهدها من الله فيهم . وفر إلى الله منهم بشهود القدر الجارى عليك وعليهم، أو لك ولهم . ولا تخف خوفا تغفل به عن الله تعالى،وترد القدر اليهم تهلك .

٨٨ — من فارق المعاصى فى ظاهره، ونبذ حب الدنيا من باطنه،ولزم حفظ جوارحه ومراعاة سره، أتته الزوائد من ربه ، ووكل به حارسا يحرسه من عنده، وأخذ الله بيده خفضا ورفعا، فى جميع أموره . والزوائدهى : زوائد العلم واليقين والمعرفة .

٨٩ — لا يوصف العبد بأنه قد هجر المعاصى إلا إن كانت لم تخطر له على بال ، فإن حقيقة الهجر نسيان المهجور . هذا فى حق الكاملين . فإن لم يكن كذلك فليهجر على المكابدة والمجاهدة .

٩٠ — لايتزحزح العبد عن النار إلا إن كف جوارحه عن معصية الله ، وتزين بحفظ أمانة الله ، وفتح قلبه لمشاهدة الله ، ولسانه وسره لمناجاة الله ، ورفع الحجاب بينه و بين صفات الله ، وأشهده الله تعالى أرواح كلماته .

٩١ — الغل هو ربط القلب على الخيانة ، والمكر ، والخديعة . والحقد هو شدة ربط القلب على الخيانة المذكورة .

٩٢ — إتق الله فى الفاحشة جملة وتفصيلا ، وفى الميل إلى الدنيا صورة وتمثيلا .

٩٣ — عقوبة ارتكاب المحرمات بالعذاب . وعقوبة أهل الطاعة بالحجاب ، لما يقع لهم فيها من سوء الآداب . وعقوبة المراكنات ترك المزيد . وعقوبة القلق والاستعجال هلاك السر .

٩٤ — من اعترض على أحوال الرجال فلا بد أن يموت قبل أجله ثلاث موتات أخر : موت بالذل ، وموت بالفقر ، وموت بالحاجة إلى الناس . ثم لايجد من يرحمه منهم .

٩٥ — من النفاق : التظاهر بفعل السنة ، والله يعلم منه غير ذلك . ومن الشرك بالله : إتخاذ الأولياء والشفعاء من دون الله . قال الله تعالى : ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ .

٩٦ — من شفع طلبا للجاه والمنزلة ، أو لعرض الدنيا ، عذبه الله على ذلك . ويتوب الله على من يشاء .

٩٧ — من سوء الظن بالله أن يستنصر لغير الله من الخلق . قال تعالى : ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴾ .

٩٨ — أوصانى أستاذى رحمه الله تعالى فقال : حدّد بصر الإيمان تجد الله فى كل شىء ، وعند كل شىء ، ومع كل شىء ، وفوق كل شىء ، وقريبا من كل شىء ، ومحيطا بكل شىء : بقرب هو وصفه ، و بإحاطة هى نعته . وعدّ عن الظرفية والحدود ، وعن الأماكن والجهات ، وعن الصحبة والقرب بالمسافات ، وعن الدور بالمخلوقات ، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر والظاهر والباطن . كان الله ولا شىء معه .

٩٩ — من غفل قلبه اتخذ دينه هزوا . ومن اشتغل بالخلق اتخذ دينه لعبا .

١٠٠ — إذا كان من يعمل على الوفاق لا يسلم من النفاق ، فكيف بغيره ؟

١٠١ — الكاملون حاملون لأوصاف الحق ، وحاملون لأوصاف الخلق ؛ فإن رأيتهم من حيث الخلق رأيت أوصاف البشر ، و إن رأيتهم من حيث الحق ، رأيت أوصاف الحق التى زينهم بها . فظاهرهم الفقر ، وباطنهم الغنى . تخلقا بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ . أفتراه أغناه بالمال ؟ كلا . وقد شدّ الحجر على بطنه من شدّة الجوع ، وأطعم الجيش كله من صاع ، وخرج من مكة على قدميه ليس معه شىء يأكله ذو كبد إلا شىء يواريه إبط بلال .

١٠٢ — العلوم التى وقع الثناء على أهلها ، و إن جلت ، فهى ظُلمة فى علوم أهل التحقيق . وهم الذين غرقوا فى تيار بحر الذات ، وغموض الصفات ، فكانوا هناك بِلَاهُمْ . وهم الخاصة العليا الذين شاركوا الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام فى أحوالهم . فلهم فيها نصيب على قدر إرثهم من مورثهم . قال النبى صلى الله عليه وسلم : « العلماء ورثة الأنبياء » يقومون مقامهم على سبيل العلم والحكمة ، لا على سبيل التحقيق بالمقام والحال . فإن مقامات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قد جلت أن يلمح حقائقها غيرهم .

١٠٣ — كل وارث فى المنزلة الموروثة لا يكون إلا بقدر مورثه فقط . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ . فكما فضل بعضهم على بعض ، كذلك فضل

بعض ورتبهم على بعض . إذ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أعين الحق ، وكل عين يشهد منها على قدرها ، وكل ولى له مادة مخصوصة .

١٠٤ — الأولياء على ضربين : صالحون ، وصدّيقون . فالصالحون أبدال الأنبياء ، والصدّيقون أبدال الرسل . فبين الصالحين والصدّيقين فى التفضيل ، كما بين الأنبياء والمرسلين . منهم طائفة انفردوا بالمادة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يشهدونها عين يقين ، وهم قليلون ، وفى التحقيق كثيرون . ومادة كل نبى وكل ولى بالاصالة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن من الأولياء من يشهد عينه ، ومنهم من تخفى عليه عينه ومادته . فيفنى فيما يرد عليه ولا يشتغل بطلب مادته . بل هو مستغرق بحاله لايرى غير وقته . ومنهم طائفة مُدّوا بالنور الإلهى فنظروا به . عرفوا من هم على التحقيق . وذلك كرامة لهم لاينكرها إلا من ينكر كرامات الأولياء . فنعوذ بالله من النكران بعد العرفان .

١٠٥ — أوّل منزل يطؤه المحب للترقى منه إلى العلا : النفس . فإذا اشتغل بسياستها ورياضتها إلى أن انتهى إلى معرفتها وتحققها ، أشرقت عليه أنوار المنزل الثانى ، وهو : القلب . فإذا اشتغل بسياسته حتى عرفه ولم يبق منه عليه شىء ، أشرقت عليه أنوار المنزل الثالث ، وهو : الروح . فإذا اشتغل بسياسته وتمت له المعرفة هبت عليه أنوار اليقين شيئا فشيئا إلى تمام نهاياته . وهذه طريق العامة . وأما طريق الخاصة فهى طريق مسلوك ، تضمحل العقول فى أقل القليل من شرحها .

١٠٦ — مَن أمدّه الله تعالى بنور العقل الأصلى ، شهد موجودا لا حدّ له ولا غاية ، بالإضافة إلى هذا العبد ، واضمحلت جميع الكائنات فيه ، فتارة يشهدها فيه كما يشهد البنّاء بنية فى الهواء بواسطة نور الشمس . وتارة لا يشهدها لانحراف نور الشمس عن الكوة . فالشمس التى يبصر بها هو : العقل الضرورى بعد المادة بنور اليقين . وإذا اضمحل هذا النور ذهبت الكائنات كلها وبقى هذا الموجود . فتارة يفنى وتارة يبقى ، حتى إذا أريد به الكمال نودى فيه نداء خفيا ، لا صوت له فيمدّ بالفهم عنه : ألا إن الذى يشهده غير الله تعالى ، ليس من الله فى شىء .

فهناك ينتبه من سكراته فيقول : يارب ثبتنى و إلا فأنا هالك . فيعلم يقينا أن هـذا البحر لا يحجبه منه إلا الله عز وجل، فحينئذ يقال له : إن هـذا الموجود هو العقل الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أول ما خلق الله العقل » . فأعطى هذا العبد الذل والانقياد لنور هذا الموجود . إذ لا يقدر على حدّه وغايته.

فإذا أمدّ الله هذا العبد بنور أسمائه ، قطع ذلك كلمح البصر، أو كما شاء الله تعالى : ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء ﴾ .

ثم أمدّه الله تعالى بنور الروح الربانى، فعرف هذا الموجود، فرقى إلى ميدان الروح الربانى، فذهب بجميع ما تحلى به هذا العبد، وما تخلى عنه بالضرورة، وبقى كَلّاً موجود.

ثم أحياه الله بنور صفاته، فأدرجه بهذه الحياة فى معرفة هذا الموجود الربانى. فلما استنشق من مبادئ صفاته كاد يقول : هو الله . فاذا لحقته العناية الأزلية نادته . ألا إن هذا الموجود هو الذى لا يجوز لأحد أن يصفه، ولا أن يعبر عنه بشىء من صفاته لغير أهله . لكن بنور غيره يعرفه .

فإذا أمده الله بنور سر الروح ، وجد نفسه جالسا على باب ميدان السر . فرفع همته ليعرف هذا الموجود الذى هو السر، فعمى عن إدراكه ، فتلاشت جميع أوصافه كأنه ليس بشىء .

فإذا أمدّه الله تعالى بنور ذاته ، أحياه حياة باقية لا عاقبة ولا غاية لها . فينظر جميع المعلومات بنور هذه الحياة، ووجد نور الحق شائعا فى كل شىء لا يشهد غيره. فنودى من قرب : لا تغـتر بالله ، فإن المحجوب من حجب عن الله بالله ، إذ محال أن يحجبه غيره، وهناك يحيا حياة استودعها الله تعالى فيه .

ثم قال : أعوذ بك منك حتى لا أرى غيرك . وهـذا هو سـبيل الترقى إلى حضرة العلى الأعلى . وهو طريق المحبين الذين هم أبدال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . وما يعطيه الله تعالى لأحدهم من بعد هذا المنزل لا يقدر أحد أن يصف منه ذرة . والحمد لله على نعمائه .

وأما طريق المحبوبين الخاصة بهم . فانه تَرَقٍّ منه إليه به ، إذ محال أن يتوصل إليه بغيره ، فأوّل قدم لهم بلا قدم . إذ ألقى عليهم نور ذاته ، فغيبهم بين عباده وحبب إليهم الخلوات ، وصغرت لديهم الأعمال الصالحات ، وعظم عندهم رب الأرضين والسموات ، فبيناهم كذلك ، إذ ألبسهم ثوب العدم ، فنظروا فإذا هم لا هم . ثم أردف عليهم ظلمة غيبتهم عن نظرهم . فصار نظرهم عدما لا علة له . فانطمست جميع العلل ، وزال كل حادث ، فلاحادث ولاوجود ، بل ليس إلا العدم الذى لاعلة له . فلا معرفة تتعلق به ، اضمحلت المعلومات ، وزالت الرسومات زوالا لا علة فيه ، وبقى من أشير إليه لا وصف له ولا صفة ولا ذات ، واضمحلت النعوت والأسماء والصفات كذلك ، فلا اسم ولا صفة ولا ذات ؛ فهنالك ظهر من لم يزل ظُهُورا لا علة فيه . بل ظهر بسره لذاته فى ذاته ، ظُهُورا لا أولية له ، بل نظر من ذاته لذاته فى ذاته . وهناك يحيا العبد بظهوره حياة لا علة لها . وصار أوّلا فى ظهوره ، لاظاهرا قبله ، فوجدت الأشياء بأوصافه ، وظهرت بنوره فى نوره . سبحانه وتعالى .

ثم يغطس بعد ذلك فى بحر بعد بحر ، إلى أن يصل إلى بحر السر ، فإذا دخل بحر السر غرق غرقا لا خروج له منه أبد الآباد . فإن شاء الله تعالى بعثه نائبا عن النبى صلى الله عليه وسلم يحيي به عباده ، وإن شاء ستره . يفعل فى ملكه مايشاء .

١٠٧ — لو كشف عن نور المؤمن العاصى لطبق ما بين السماء والأرض ، فما ظنك بنور المؤمن المطيع .

١٠٨ — من ثبتت ولايته من الله تعالى لا يكره الموت .

١٠٩ — دخل عليه رجل فقير عليه ملابس شعر ، فلما فرغ الشيخ من كلامه ، دنا منه ذلك الرجل وأمسك ملبسه وقال : ياسيدى ، ماعُبِدَ اللهَ بهذا اللباس الذى عليك ! فأمسك الشيخ ملبسه فوجد خشونته فقال : ولا عبد الله بهذا اللباس الذى عليك ! لباسى يقول أنا غنى عنكم فلا تعطونى . ولباسك يقول أنا فقير إليكم فاعطونى .

١١٠ — يا بُنيّ بَرِّد الماء ، فإنك إذا شربت الماء السخن فقلت : الحمد لله . تقولها بكزازة . وإذا شربت الماء البارد فقلت : الحمد لله . استجاب كل عضو فيك بالحمد لله .

*
* *

إلى هنا انتهيت من التعريف بالشيخ أبى الحسن الشاذلى : ومما اخترته من نفيس كلامه . والآن آخذ بحول الله فى الغرض المقصود من وضع هذه الرسالة وهو التعريف بالشيخ أبى العباس المرسى سيد أصحابه ، وعلم أترابه ، وأفضل أنجابه . وسيكون هذا التعريف محيطا شاملا ، وبسيطا حافلا . إن شاء الله تعالى .

أبو العباس المرسى

التعريف به :

هو الشيخ الإمام العارف بالله شهاب الدين أبو العباس أحمد بن عمر بن على الخزرجى الأنصارى المُرسى البَلَنسى . يتصل نسبه بالصحابى الجليل سعد بن عُبادة الأنصارى سيد الخزرج على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحب سقيفة بنى ساعدة التى تمت فيها بيعة أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه بالخلافة . وكان جدّه الأعلى قيس بن سعد أميرا على مصر من قِبل الإمام أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . وذلك فى سنة ٣٦ هـ . (٦٥٦ م) .

مولده ومنشؤه :

كان مولده فى "مُرسية"(١) سنة ٦١٦ هـ . (١٢١٩ م) ونشأ بها . وهى إحدى مدن الأندلس، التى اختطها عبد الرحمن الناصر الأموى من بلاد بلنسية . وإليها نسب أبو العباس فقيل له " المرسى " . ولما بلغ سنّ التعلم والتلقن دفعه والده إلى مؤدّبه، فأخذ يعلمه القراءة والكتابة والخط والحساب، ويلقنه كتاب الله الكريم .

والظاهر أنه نشأ فى بيئة صالحة فصفت نفسه، وانطبعت روحه على مبادئ التصوّف ، فلقد قال عن نفسه : كنت وأنا صبى عند المؤدّب جاء رجل فوجدنى أكتب فى لوح، فقال : الصوفى لا يسوّد بياضا ! فقلت : ليس الأمر كما زعمت ! ولكن لا يسوّد بياض الصحائف بسواد الذنوب . وقال مرة : عمل إلى جانب

---

(١) جاء فى كتاب الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان فيما نقله عن "دون فيلكس بونسوا سير بان الأسبانى"، أن مرسية كانت تعرف باللسان الرومانى "أرسيلازفس" وبالأسبانى "مورسيا" وأن هذه اللفظة هى يونانية " مورتيا" ومعناها : الآس . وهو هذه الشجيرة التى كانت عند الأقدمين منسوبة إلى الزهرة . قلت : وعلى هذا فليست مرسية من اختطاط عبد الرحمن الناصر كما ذكر بعض المؤرخين . وهى إذن قديمة العهد، والظاهر أن عبد الرحمن الناصر أنشأ مرسيته الجديدة على أنقاض المرسية القديمة . وأدار عليها سورا منيعا ذا أبراج . كما يؤخذ من هذا المصدر .

دارنا خيال الستار ، وأنا إذ ذاك صبي لحضرته ، فلما أصبحت أتيت إلى المؤدب ، وكان من أولياء الله تعالى . فأنشد حين رآني :

يا ناظرا صور الخيالِ تعجبا * وهو الخيال بِعينِه لو أبصرا

اشتغاله بالتجارة :

وكان والده عمر بن على من تجار مرسية . وكان يعمل معه فى تجارته ولده الأكبر أبو عبد الله جمال الدين محمد . ولما آستوت معارف أبى العباس وظهرت عليه علائم النجابة ، رأى والده الانتفاع بمواهبه فى متاجره ، فألحقه بأعماله ، وصار يبعثه صحبة أخيه فى البلاد . فزاول الأعمال التجارية ، وتدرب على شؤون الأخذ والعطاء ، وطرق المعاملات ، وأساليب المخالفات . ولا شك فى أن الأعمال التجارية مما يوسع دائرة فهم الحياة ، ويفتق الذهن لإدراك أخلاق الناس ؛ فهى مدرسة من أبرع المدارس التى يقترن فيها العلم بالعمل ، وتسمو فيها المدارك إلى تفقه الأسباب والعلل ، لا سيما إذا مارسها ذو إرادة قوية ، وقام عليها ذو بصيرة مرضية . وقد كان أبو العباس مطبوعا على هذه الخلال ، فأفاد تجارة والده فائدة كبرى ، واستفاد هو من معاملات الناس وأخلاقهم وتباين مشاربهم واتجاهات أنظارهم ، ما أرهف حسه ، وأنار نفسه . فما وصل إلى الرابعة والعشرين من عمره ، حتى صار يشار إليه بالبنان ، ويُقصد ليمن طالعه فى كل مكان . وظهرت بركته على أعمال أبيه . حتى آثره بحبه وعطفه على أخيه .

نجاته من الغرق ودخوله تونس :

ولما كانت سنة ٦٤٠ ﻫ (١٢٤٢ م) ، اعتزم والده الحج إلى بيت الله الحرام فصحب معه ولديه وأمهما فاطمة بنت الشيخ عبد الرحمن المالق . فركبوا البحر عن طريق الجزائر ، حتى إذا كانوا على مقربة من شاطئ بونة ، هبت عليهم ريح عاصف أغرقت المركب بما فيها وبمن فيها . غير أن عناية الله أدركت أبا العباس وأخاه ،

فأنجاهما الله تعالى من الغرق ، فقصدا تونس وتديّراها . فأما محمد فاتجه نحو الأعمال التجارية ، وصار يتنقل فى الأسواق مباشرا الأخذ والعطاء على قدر حالته . وأما أحمد فاتخذ له مكتبا فى زاوية الفقيه محرز بن خلف ، يعلم فيه الصبيان مبادئ القراءة والكتابة والخط والحساب وحفظ كلام الله القديم ، وغير ذلك من مستلزمات ذلك العصر .

تعرّفه بالشيخ الشاذلى :

وكان من المصادفات الحسنة أن الشيخ أبا الحسن الشاذلى كان على مقربة من المكان الذى حلّا فيه . وكان قد اتخذ له زاوية فى سفح جبل زغوان ، فترامى صيته إليهما .

قال الشيخ أبو العباس : لما نزلت بتونس ، وكنت أتيت من مرسية — وأنا إذ ذاك شاب — سمعت بذكر الشيخ أبى الحسن الشاذلى ، فقال لى رجل : تمضى بنا إليه ؟ فقلت : حتى أستخير الله . فنمت تلك الليلة فرأيت كأنى أصعد إلى رأس جبل ، فلما علوت فوقه ، رأيت هنالك رجلا عليه بُرنُس أخضر ، وهو جالس وعن يمينه رجل وعن يساره رجل ، فنظرت إليه فقال : عثرت على خليفة الزمان . قال : فانتبهت . فلما كان بعد صلاة الصبح جاءنى الرجل الذى دعانى إلى زيارة الشيخ فسرت معه ، فلما دخلنا عليه رأيته بالصفة التى رأيته بها فوق الجبل ، فدهشت ! فقال لى : عثرت على خليفة الزمان : ما اسمك ؟ فذكرت له اسمى ونسبى . فقال لى : رُفعت لى منذ عشر سنين .

فلما تعرّف إليه صار يتردّد عليه فى زاويته ، ويحضر مجالسه التى كان يعقدها لتعليم الطلاب ، وإرشاد المريدين ، ومناظرة العلماء ، ومنازلة الفقهاء ؛ وكان يقيم لهم حفلات الذكر ، ويحثهم على التقوى والبر ، ويرشدهم إلى الطريق القويم ، ويلقنهم أصول السلوك على طريق القوم ، فأظهر أبو العباس استعدادا للتلقى فاق به على أقرانه . فأحبه الشيخ وقرّبه وأدناه ، واختصه بأسراره ، وأفضى إليه بما وهبه الله ، من علوم ومعارف ، ومكاشفات وعوارف ، وأفاض عليه مما أفاء الله عليه من خيرات وبركات ،

حتى قال له : يا أبا العباس ، والله ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت . ولقد رأيت فيك ما فى الأولياء ، وما رأيت فى الأولياء ما فيك . ولازمه أبو العباس منذ ذلك الحين ملازمة تامة ، وصار لا يكاد يفارقه فى سفر ولا فى حضر .

وفوده مع شيخه إلى مصر :

وفى سنة ٦٤٢ هـ (١٢٤٤ م) عندما حدثت فتنة الفقيه أبى القاسم بن البراء قاضى تونس ، وقام الشيخ أبو الحسن متجها نحو الديار المصرية ، كان على رأس أصحابه الشيخ أبو العباس المرسى .

قال الشيخ أبو العباس : كنت مع الشيخ فى السفر ، ونحن قاصدون الإسكندرية حين مجيئنا من الغرب ، فأخذنى ضيق شديد حتى ضعفت عن حمله ، فأتيت إلى الشيخ أبى الحسن ، فلما أحس بى قال : أحمد! قلت : نعم ياسيدى . قال : آدم خلقه الله بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ثم نزل به إلى الأرض . والله ما أنزل الله آدم إلى الأرض لينقصه . ولكن نزل به إلى الأرض ليكمله ، ولقد أنزله إلى الأرض من قبل أن يخلقه . بقوله : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ما قال فى السماء ، ولا فى الجنة . فكان نزوله إلى الأرض نزول كرامة ، لا نزول إهانة . فإنه كان يعبد الله فى الجنة بالتعريف ، فأنزله إلى الأرض ليعبده بالتكليف . فلما توفرت فيه العبوديتان استحق أن يكون خليفته ؛ وأنت أيضا لك قسط من آدم ، كانت بدايتك فى سماء الروح فى جنة التعريف ، فأنزلت إلى أرض النفس لتعبده بالتكليف . فإذا توفرت فيك العبوديتان استحققت أن تكون خليفة .

دخوله الإسكندرية :

وما انتهى الشيخ من هذه العبارة التمثيلية الفائقة ، حتى شرح الله صدر أبى العباس ، وأذهب عنه ما كان يجد من الضيق والوسواس . ثم جدّوا السير إلى أن دخلوا الإسكندرية .

قال الشيخ أبو العباس : لما قدمنا من الغرب إلى الإسكندرية ، نزلنا عند عمود السوارى من ظاهرها . وكان دخولنا عند اصفرار الشمس ، وكانت بنا فاقة وجوع شديد . فبعث الينا رجل من عدول الإسكندرية بطعام ، فلما قيل للشيخ عنه قال : لا يأكل أحد منه شيئا . فبتنا على ما نحن عليه من الجوع ، فلما كان عند الصبح صلى بنا الشيخ وقال : مدّوا السماط ، وأحضروا ذلك الطعام . ففعلوا وتقدّمنا فأكلنا . فقال الشيخ : رأيت فى المنام قائلا يقول : أحَلُّ الحلال ما لم يخطر لك ببال ، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال .

ولما نزلوا الإسكندرية اتخذ الشيخ أبو الحسن دارا — بإزاء قلعة «كوم الديماس» المعروفة الآن بكوم الدكة — نزل بها هو وأصحابه وعلى رأسهم صفيه وخليله أبو العباس المرسى . وأخذوا يدعون إلى الله فى كل مكان حتى قصدهم العلماء والفضلاء ، ولازم مجالسهم الطلاب والمريدون ، وذاع صيتهم فى الديار المصرية . فغشيهم من مختلف أنحائها عامة الناس وخاصتهم .

ويؤخذ من عبارة أوردها ابن عطاء الله ، أن الشيخ أبا العباس كان من الشهود المعدلين بثغر الاسكندرية ، وكان متزوجا بكريمة شيخه أبى الحسن . وقد جاءت منه بأولاده جمال الدين محمد ، وأبى العباس أحمد ، وأختهما بهجة ، التى تزوجها الشيخ ياقوت .

استخلاف الشاذلى له :

ولما كانت سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) اختار الشيخ أبو الحسن جامع العطارين الذى أنشأه بدر الجمالى بالاسكندرية لإلقاء دروسه ، وعقد حلقات وعظه وإرشاده . وفيه أقام الشيخ أبا العباس خليفة ، وأذن له فى إلقاء الدروس ، وإرشاد المريدين ، وتعليم الطلاب ، ومناظرة العلماء ، وتلقين مبادئ السلوك ، وتهذيب الأخلاق ، ومداواة النفوس .

دخـــوله القـاهرة :

ثم إن الشيخ أبا العباس اسـتأذن شيخه فى القيام بأمر الدعوة فى القـاهرة، واتخذ من جامع الحاكم بالمقس (١) مدرسة لبث تعاليمه ومبادئه بين الطلاب والمريدين، كما جعله نزلا له ومثوى . ومع ذلك فقد كان فى كل ليلة يذهب إلى الإسكندرية — كما قيل — فيسمع ميعاد شيخه أبى الحسن، ثم يرجع إلى القاهرة. وكان يقرأ عليه كتاب "ختم الأولياء" للحكيم الترمذى (٢)، و "إحياء العلوم" للغزالى (٣)، و "قوت القلوب" للمكى (٤)، و "الرسالة" للقشيرى (٥)، و "الشفاء" للقاضى عياض (٦) . وكان يقـول : كتاب الإحياء يورثك العلم، وكتاب القوت يورثك النـور . ويقـول : الإمام أبو حامد الغزالى من الصديقين، والإمام الترمذى الحكيم أحد الأوتاد الأربعة .

(١) جامع الحاكم هذا هو الذى يقال له الآن "جامع أولاد عنان"، بشارع إبراهيم باشا، على يسار الذاهب إلى ميدان محطة السكة الحديد . أنشأه الحاكم بأمر الله الفاطمى، ووقف عليه أماكن كثيرة بمصر، وتجددت عمارته فى سنة ٥٨٧، وفى سنة ٧٧٠ هـ جدده الوزير الصاحب شمس الدين عبد الله المقسى ووقف عليه أوقافا دارة . فعرف بجامع المقسى . ثم نسب بعد ذلك إلى أولاد عنان، وهم الشيخ محمد بن عنان الشرقاوى المدفون به هو وأولاده، وكان من رجال التقوى والصلاح . توفى سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن على المؤذن الحكيم الترمذى، كان من أكابر مشيخة خراسان، وله مؤلفات فى التصوف، أورد بها كلاما فى الرقائق، من أجل ما تستروح به النفس الصافية، وكتاب "ختم الأولياء" هذا من أبدع مؤلفاته . وقد امتحن ببلده وأخرج منها لعدم فهم مراميه من كلماته . توفى سنة ٢٨٥ هـ (٨٩٨ م) .

(٣) هو الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالى الطوسى الشافعى . الغنىّ بشهرته عن التعريف . توفى سنة ٥٠٥ هـ (١١١١ م) .

(٤) هو أبو طالب محمد بن على بن عطية الحارثى المكى، كان من أكابر الوعاظ وأفاضل المرشدين، وكتابه "قوت القلوب" من أجل الكتب التى صنفت فى التصوف وطريق القوم . توفى ببغداد سنة ٣٨٦ هـ (٩٩٦ م) .

(٥) هو أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى النيسابورى الفقيه الشافعى، كان من أقطاب الصوفية وعلمائهم البارعين، وله مؤلفات فى التفسير والفقه والحديث . ومن أشهر مؤلفاته "الرسالة القشيرية" فى التصوف ورجاله، وهى من أبدع ما ألف فى هذا الباب . توفى بنيسابور سنة ٤٦٥ هـ (١٠٧٣ م) .

(٦) هو أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى السبتى الأندلسى الأفريقى القاضى الشهير، كان إماما فى علوم كثيرة، وله مصنفات فى غاية الجودة، ومن أكثرها ذيوعا "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" و "مشارق الأنوار على صحاح الآثار" توفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ (١١٤٩ م) .

مزايا مريد العهـــد :

وكانت القاعدة عند الشيخ أبى الحسن، والشيخ أبى العباس، والشيخ تاج الدين ابن عطاء الله، والشيخ ياقوت العرشى — فى قبول الطلاب — كما قال الشيخ على الخواص (١) — أن لا يدخل أحد الطريق إلا بعـد تبحره فى علوم الشريعـة وآلاتها بحيث يقطع العلماء فى مجالس المناظرة بالحجج الواضحـة . فإذا لم يتبحر كذلك لا يأخذون عليه العهد أبدا .

عمليـــة تجارية مباركـة :

وكان الشيخ أبو الحسن، والشيخ أبو العباس كثيرا ما يتنقلون فى البلاد . فتارة يكونان معا فى بلد واحد، وتارة يكون كل واحد منهما فى بلد .

قال الشيخ أبو العباس : كنت ليلة من الليالى نائما بالإسكندرية، وإذا قائلا يقول : مكة والمدينة ! فلما أصبحت، عزمت على السفر — وكان الشيخ أبو الحسن بالمقياس (٢) بالقاهرة — فسافرت اليه، فلما مثلت بين يديه قال لى : مكة والمدينة ! فقلت : لأجل ذلك جئت ياسيدى . قال : اجلس . فجلست، وإذا برجل دخل عليه وقال : ياسيدى ! عزمت على الحج وما معى شىء من الدنيا ! فقال لى الشيخ : أى شىء معك ؟ فقلت : عشرة دنانير . قال : إدفعها لهذا الرجل ! فدفعتها إليه . فقال لى

---

(١) هو الشيخ على الخواص البرلسى صاحب الضريح والمسجد بالحسينية خارج باب الفتوح بالقاهرة ويقصده الناس للزيارة . كان أميا لا يقرأ ولا يكتب . ومع هذا فقد كان يعرض لتفسير بعض آيات من القرآن . والناس فيه اعتقاد . ويذكر له الشيخ عبد الوهاب الشعرانى كرامات وأحوال، ويعترف بأنه كان شيخه . والله أعلم بحاله .

(٢) جامع المقياس هذا كان بقلعة الروضة تجاه الجيزة، أنشأه بدر الجمالى وزير المستنصر بالله الفاطمى فى نحو سنة ٤٨٠هـ . ثم عمره الملك الصالح نجم الدين أيوب، ثم شرع فى تجديده الملك المؤيد فى سنة ٨٢٣هـ . ووقف عليه أوقافا . وأتمه الظاهر جقمق، ووقف عليه أوقافا، ثم جدده السلطان الغورى ووقف عليه أوقافا سنة ٩٢٢هـ . ثم خربه الفرنسيون عند دخولهم الديار المصرية سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨م) . وقد نبهنى الأستاذ حسن عبد الوهاب إلى أن المسجد الذى جدده حسن باشا المناسترلى بالروضة ودفن فيه لا علاقة بينه وبين جامع المقياس — خلافا لما ذكره على باشا مبارك — وأن مسجد المناسترلى بعيد عن آثار ذلك الجامع .

الشيخ : إذا كان غدا اخرج إلى الساحل واشتر لى عشرين إردبا قمحا . فأصبحت ونزلت إلى الساحل واشتريت عشرين إردبا، وحملت القمح إلى المخزن، وجئت إلى الشيخ فقال لى : هذا القمح، قالوا لى إنه مسوس . ما تأخذ منه شيئا ! فبقيت متحيرا لا أدرى كيف أصنع، وبقيت ثلاثة أيام لا يطالبنى صاحب القمح بالثمن . فلما كان اليوم الرابع وإذا برجل يطوف علىّ، فلما رآنى قال: أنت صاحب القمح؟ فقلت : نعم . قال : تأخذ فيه فائدة ألف درهم؟ فقلت : نعم . فوزن لى ألف درهم . فوضع الله لى البركة فيها، فلو قلت : إنى أنفق منها إلى اليوم، لصدقت .

قلت : وهذا من أجل الدروس التى يقصد بها تربية المريدين وأهل الطريق على العمل والكسب الحلال، والترفع عما فى أيدى الناس .

صحبته لشيخه سنة وفاة الشيخ :

وفى سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) . صحب الشيخ أبا الحسن لأداء فريضة الحج . فمرض الشيخ مرضا شديدا إنتهى بوفاته، ودفن بِحُمَيْثَرا من صحراء عيذاب .

قال الشيخ أبو العباس : سافرنا مع الشيخ فى السنة التى توفى فيها، فلما كنا عند أخميم قال لى الشيخ : رأيت البارحة كأنى فى جُلبة(١) وأنا فى البحر . والرياح قد اختلفت، والأمواج قد تلاطمت، وأشرفنا على الغرق، فأتيت إلى جانب المركب وقلت: أيها البحر، إن كنت أُمرت بالسمع والطاعة لى ، فالمنة لله السميع العليم . وإن كنت أمرت بغير ذلك، فالحكم لله العزيز الحكيم . فسمعت البحر يقول : الطاعة الطاعة، فلما سافرنا وتوفى الشيخ دفناه بحميثرا من صحراء عيذاب ، وركبنا فى جُلبة، فلما صرنا

---

(١) الجلبة : نوع من السفن مؤلف من ألواح ضمت بعضها إلى بعض بحبال من الليف . وليس فيها شىء من المسامير . وكان البحارة ، وأكثرهم من البجة ، يشحنونها بالركاب من الحجاج والتجار لنقلهم من ساحل القصير إلى ساحل جدة . وكثيرا ما كانت عرضة للغرق بهم دون مبالاة . حتى كان هؤلاء البحارة يقولون : عليكم الأرواح وعلينا الألواح . ولعل عدم استعمال المسامير فى هذه السفن راجعا إلى الخوف من حجر المغناطيس الذى قد يكون فى البحر الاحمر ، وعرفه أجدادهم فاحترسوا منه بهذا النوع .

فى وسط البحر تلاطمت الأمواج ، واختلفت الرياح ، وانفتحت الجلبة ، وأشرفنا على الغرق ، أتيت إلى جانب المركب وقلت كما قال الشيخ ، فسكن البحر وطاب السفر .

تصدّره مجالس التعليم والإرشاد :

ولما أدّى الشيخ أبو العباس فريضة الحج بعد موت شيخه ، عاد فتصدّر مجالسه . ومن ثم أخذ شأنه فى الارتفاع ، وصيته فى الذيوع ، ونجمه فى الصعود ؛ فأمه الطلاب والمريدون من أدانى البلاد وأقاصيها ، ورحل إليه الزوّار وذوو الحاجات من سائر الأقطار ، وسار ذكره كل مسار . وتوافد عليه العلماء والأمراء ، وقصد إليه الكبراء والفقراء . وكان إذا جاء الصيف رحل إلى القاهرة ، ونزل بجامع الحاكم بالمَقسِىّ ، وأخذ يتنقل بينه وبين جامع عمرو بن العاص بالفسطاط . وكان أكثر من يحضر دروسه من العلماء ، لاسيما إذا أخذ فى شرح الرسالة للامام القشيرى . فقد كان يوم شرحه لها من الأيام المعدودة ، لأنه كان يُورِد من أسرار الحقائق ما يملك النفوس ، ويعرض من دقائق الرقائق ما تستطير له الأرواح ، ويستولى على القلوب . حتى أناب على يديه خلق لا عدّ لهم ولا حصر .

تحقيق سنة وفاته :

وما زال قائما على الدعوة إلى الله تعالى ، ملتزما الطريقة المثلى من التقوى والورع والصلاح ، ناشرا العلوم والمعارف بين الناس ، مهذبا من نفوس الطلاب والمريدين ، إلى أن وافاه القدر المحتوم ، فانتقل إلى جوار ربه فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٨٥ هـ (١٢٨٧ م) رحمه الله تعالى .

وعند المقريزى فى السلوك أنه توفى سنة ٦٨٦ هـ . وكذلك هو عند السيوطى فى حسن المحاضرة . والأول أرجح .

وكان يوم وفاته من الأيام المشهودة . ودفن فى قبره المعروف بالجبانة التى إزاء رباط الشاطبى، خارج باب البحر، من ظاهر الاسكندرية، بمحرس سوّار، قريبا من قبة المغاورى . وظل قبره معروفا عنـد الناس جميعا . مقصودا بالزيارة للتبرك من العامة والخاصـة . غير أنه لم يقم عليه بنـاء إلا فى سـنة ٧٠٦ هـ (١٣٠٧ م) .

وكان وفود الشـيخ أبى العباس المرسى ، مع شيخه أبى الحسن الشاذلى، إلى الديار المصرية ، فى عهـد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب . وكانت وفاته فى عهد الملك المنصور سيف الدين قلاون الصالحى . رحم الله الجميع .

نبــذ من مناقبــه وشمـائله

كان الشيخ أبو العباس رحمـه الله — على سمت الغالبية من أهل الأندلس ، من التفقه على مذهب الإمام مالك بن أنس رحمـه الله — وكان من الإسـتقامة والصلاح على الطريقة المثلى ، ومن الزهد والتقوى والورع من وراء الغاية ، وكانت ثقته بالله واعتماده عليه على الجانب الذى لايرام ، وكان طوال مقامه بالديار المصرية منصرفا إلى تلقين طلابه ومريديه عقـائده الصالحة ، ومبادئه النـافعة ، متجردا لإرشاد الخلق إلى النهج القويم ، والطريق المستقيم . ولمـا كان شيخه أبو الحسن الشاذلى قد أسلم إليه رايته ، واستخلفه على نشر طريقته ، وصدره فى مجلسه لإلقاء الدروس ، وتهذيب النفوس ، كان من همه النهوض بهـذه الأعباء الجسام ، مجتهدا فى بث لباب العبادات بين الناس ، وتعليمهم أسرار الشريعة ، ولطائف الحقيقة ، موضحا للعباد ما لهم عنـد الله من القربى إذا استقاموا على الطريقة ، مع حثهم على طلب الرزق باتخاذ الحرف الشريفة ، ويحبب إليهم التعفف عما فى أيدى الناس ، والثقة بمـا عنـد الله . ويقول لأصحابه : والله ما رأيت العـز إلا فى رفع الهمة عن الخلق ، وما السلامة فى الدنيا إلا بترك الطمع فى المخلوقين .

صــفته :

وكان ذكى الفؤاد ، مستنير البصيرة ، نافذ الفراسة ، حاد الذهن ، قوى الفطنة ، سريع الخاطر . حتى لقد كان يقع على ما يجول فى صدور الناس ويستشف خفايا قلوبهم . وكان مع هذا حسن السمت ، جميل المحيا ، ظاهر الهيبة ، نظيف الثياب ، ثمين الملبوس ، كثير الوقار ، كث اللحية ، مربوع القامة ، أبيض الوجه ، تام الخلق .

سعة معارفه :

أتقن علوما كثيرة، وأخذ من كل فن بنصيب وافر، حتى لكان المتحدث إليه فى علم من العلوم ينصرف من بين يديه، وهو يظن أنه لايحسن إلا ذلك العلم الذى كان يتحدث معه فيه، لاسيما إذا أخذ فى علم التفسير، والحديث، والفقه، والأصول، والأدب، ومبادئ السلوك . أما المعارف اللدنية، وأسرار الحقائق الربانية، فقد كان كما قيل : قطب رحاها، وشمس ضحاها . وكان كتابه فى التفسير "الوجيز" لابن عطية[1]. وفى الحديث "المصابيح" للبغوى[2] . وفى الفقه "التهذيب والرسالة" . وفى الأخلاق "الاحياء" للغزالى، وفى التصوف "ختم الأولياء" لحكيم الترمذى، و"قوت القلوب" لأبى طالب المكى ، و " الرسالة البيانية " للقشيرى . وقد كان مشهورا عند أهل زمنه بالتبحر فى العلوم الإسلامية، والتخصص فى علوم الحقيقة وأصول الطريقة . وكان يقول : شاركنا الفقهاء فيما هم فيه، ولم يشاركونا فيما نحن فيه .

نصيبه من الأدب العربى :

وقد تبين لى من أمره، أنه كان على معرفة حسنة بالأدب العربى، فكان يحفظ من أشعار العرب قدرا صالحا يستشهد به فى المناسبات، مع بيان مقاصد الشاعر واتجاهاته . وكان يكتب الرسائل الحسان ، وينظم الشعر على نهج العلماء من أهل

---

(١) هو العالم المفسر أبو محمد عبد الحق بن غالب (ابن عطية) المحاربى الأندلسى ، كان فقيها عالما بالتفسير والحديث والأحكام ، عارفا بفنون اللغة والأدب ، وله نظم ونثر ، ولى قضاء المرية فأظهر دهاء وذكاء، وتصرفا حسنا فى توخى الحق ، والتزام العدل . ألف كتابه " المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز" فأحسن فيه وأبدع ، وطار بحسن نيته كل مطار . قصد مرسية ليتولى قضاءها فصد عن دخولها وصرف منها إلى لورقة ، فمات بها سنة ٥٤٦ هـ (١١٥١ م) .

(٢) هو محيى السنة ركن الدين أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى ، كان من أكابر فقهاء الشافعية ، متبحرا فى كثير من العلوم . وله من المصنفات "مصابيح السنة" فى الحديث ، و"معالم التنزيل" فى التفسير . وغيرها من الكتب القيمة . مات بمرو الروذ سنة ٥١٦ هـ (١١٢٢ م) على الراجح .

الطريق، وكان يعبر عن أغراضه ومراميه بالعبارات الجيدة، مع الإيجاز الحسن، ويعرض معانيه فى الأساليب المقبولة، مع التمسك بأهداب الفضيلة . أما الورع، والتقوى، والزهد الخالص لوجه الله، وحسن التوكل على الله، والاعتماد عليه وترك من عداه . فقد كان فى هذا كله العلم المفرد . قال يوما : كان الشيخ أبو الحسن قال لى : إن أردت أن تكون من أصحابى فلا تقبل من أحد شيئا ! فكان إذا اشتدّ على الوقت أخرج إلى ساحل بحر الاسكندرية ألتقط ما يرميه البحر بالساحل من قمح حين يرفع من المراكب . وهذا غاية الزهد والورع والتعفف .

هل كان يعرف لغة غير العربية ؟

وفوق ذلك فقد يستشف من مجمل أحواله، وثنايا أخباره ، أنه كان يعرف لغة أخرى غير العربية ، وأرجح أنها الفارسية أو التركية لذيوعها فى ذلك العهد . حدّث الشيخ نجم الدين عبد الله الأصفهانى قال : سألنى الشيخ أبو العباس يوما : ما اسم كذا وكذا بالعجمية ؟ فخطر لى أن الشيخ يحب أن يقف على اللغة العجمية . فأتيت إليه بكتاب الترجمان : فقال : ما هذا الكتاب ؟ قلت : كتاب الترجمان . فضحك وقال : سل ما شئت بالعجمية ، أجبك بالعربية ، أو سل ما شئت بالعربية ، أجبك بالعجمية . فسألته بالعجمية، فأجابنى بالعربية . وسألته بالعربية، فأجابنى بالعجمية ، وقال : ياعبد الله! ما أردت بقولى ما اسم كذا إلا مباسطتك! وإلا فلا يكون صاحب هذا الشأن ويخفى عليه شىء من الألسنة ... !

قلت : يريد أن معرفته بالألسنة إنما جاءته إلهاما . ولذلك كان يقول : إذا كمل الرجل، نطق بجميع اللغات، وعرف جميع الألسن، إلهاما من الله عز وجل، وليس هذا ببعيد على قدرة الله تعالى .

اعتراف علماء عصره بفضله :

كان الشيخ أبو الحسن الشاذلى يحب السعى فى مصالح الناس ، ومن أجل ذلك كان لا يتحرج من مقابلة الأمراء والحكام والوجوه والأعيان . أما الشيخ أبوالعباس فكان يتحرج من ذلك ، ولا يحب مقابلة ذى سلطان ، وإن رغب فى لقائه. ولذلك لما جاءه أحد الناس وطلب وساطته عند بعض الحكام فى حاجة له قال : أنا أطلب لك ذلك من الله . ومن أجل هذا كان الشيخ أبوالحسن يقول : أبوالعباس ، بطرق السماء أعلم منه بطرق الأرض . وكان يقول : عليكم بالشيخ أبى العباس فوالله إنه ليأتيه البدوى لا يحسن وضوءه ، فلا يمسى إلا وقد أوصله إلى الله تعالى. وكان يقول : هذا أبو العباس مذ نفذ إلى الله لم يحجب ، ولو طلب الحجاب لم يجده.

ولما قال الشيخ أبو العباس فى بعض مجالسه بحضرة شيخه أبى الحسن : سمعت شيخى أبا الحسن يقول : لن تهلك أمة فيها أربعة : إمام ، وولى ، وصديق ، وشيخ . قال أبو الحسن : الإمام هو أبو العباس . وكان يقول : أبو العباس شمس ، وعبد الحكيم قمر . قلت : وعبد الحكيم هذا كان من أصحاب الشيخ أبى الحسن .

وقال الشيخ أبو العباس الدمنهورى : سيدى أبو العباس المرسى ملك من ملوك الآخرة . ما من أسوان إلى دمياط وإلى الاسكندرية رجل مثله .

وقال الشيخ أبو عبد الله بن النعمان[1] : الشيخ أبو العباس المرسى وارث علم الشاذلى حقيقة .

وقال جماعة من أهل "أشموم" : قدم علينا الشيخ أبو الحسن البجائى — من أصحاب أبى الحسن الشاذلى — فكان يتكلم علينا فيعجبنا كلامه . فاذا رأى إعجابنا بذلك قال : كيف لو رأيتم الشيخ أبا العباس المرسى ! والله لو أطلق أبو العباس لسانى لتكلمت بالعلم الغريب .

(١) هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن موسى بن النعمان التلمسانى المرسى الاسكندرى . قدم الاسكندرية شابا فأخذ عن بعض علمائها ، وكان عارفا بمذهب الامام مالك مع الزهد والورع ورسوخ القدم فى العبادة والنسك ، ولد سنة ٦٠٧ هـ . وتوفى بالقاهرة سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) .

وذكر ابن عطاء الله السكندرى، أن الشيخ شمس الدين الأصفهانى[١]، والشيخ شمس الدين الأيكى[٢]، كانا يجلسان بين يديه جلوس المستفيد، آخذين عنه، ومعلقين ما يبديه.

وقال: كان «بتشيل القناطر» رجل يقال له خليل — وهو مدفون بها الآن — قال: دخل علىَّ الشيخ أبو الحسن الشاذلى فتوضأ عندى، ثم أخذ قوسا لى يحزها ثلاثا. فقلت له: يا سيدى، من هو الخليفة بعدك؟ فقال: من يأتى إليك ههنا و يتوضأ نحو وضوئى هذا، ويحز هذه القوس ثلاثا، فهو الخليفة بعدى. فدخل علىّ أصحاب الشيخ جميعهم فلم يتفق أن فعل ذلك أحد منهم، حتى دخل الشيخ أبو العباس فتوضأ نحو وضوء الشيخ، ورفع بصره فوجد القوس فقال: ناولنيها؟ فناولته إياها، يحزها ثلاث مرات، ثم قال: يا خليل! جاءك وعد الشيخ.

وقال: جاء الطواشى بهاء الدين مشد الديوان، والفقيه شمس الدين الخطيب ناظر الأحباس، إلى الشيخ أبى العباس فقالا له: إن هذه القلعة تحتاج إلى حُصر وزيت وقناديل، ويحتاج الفقهاء فيها إلى ما يأكلون، ونحن حكام الوقت، نطلق لها شيئا كل شهر؟ فقال لهما: حتى أشاور أصحابى. ثم قال لأصحابه: بماذا تشيرون؟ فلم يرجع أحد جوابا، فكرر السؤال فلم يجبه أحد، فقال: اللهم اغننا عنهم

---

(١) هو العلامة الأصولى المتكلم شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمود العجلى الأصفهانى، من ذرية أبى دلف الشهير. كان أبوه نائب السلطنة بأصفهان. تلق علومه على مشيخة بلده، ثم رحل إلى بغداد وأخذ عن علمائها، ثم دخل بلاد الروم (السلطنة العثمانية) وتلق عن شيوخها، ثم حضر إلى الديار المصرية وولى قضاء قوص خلافة عن القاضى تاج الدين بن بنت الأعز. وكانت له دروس فى مشهد الحسين والامام الشافعى، وأخذ عنه جماعة من المصريين، وله تصانيف فى كثير من العلوم، مع إجادة العربية وقرض الشعر. كان مولده بأصفهان سنة ٦١٦ هـ. وتوفى بمصر فى ٢٠ رجب سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م)

(٢) هو العلامة الامام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الفارسى الأيكى. كان من أئمة الفقه والتصوف، دخل دمشق ودرس بها، ثم حضر إلى مصر وولى مشيخة الشيوخ، فتكلم فيه الصوفية، فخرج منها عائدا إلى دمشق فتوفى بالمزة فى ٣ من شهر رمضان سنة ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) عن سبعين سنة. وله مؤلفات فى الأصول والتفسير وغيرهما.

ولا تفتنا بهم ، إنك على كل شيء قدير . ومات الشيخ وليس للمكان مرتب ولا معلوم .
قلت : ما بعد هذا نهاية فى حسن التوكل على الله .

وقال الشيخ ياقوت العرشى : عزم علىّ إنسان فقدّم لى طعاما فرأيت عليه ظُلمة فقلت فى نفسى : هذا طعام حرام . فامتنعت من أكله . ثم دخلت على الشيخ أبى العباس فقال لى أول ماجلست : ومن جهل بعض المريدين أن يقدم له طعام ، فيرى عليه ظلمة فيقول : هذا حرام ! يا مسكين ، ما يساوى ورعك بسوء ظنك بصاحبك المسلم ! هلا قلت : هذا طعام لم يردن الله به ؟ ...

وكان رجل ينكر عليه و يقول : ليس إلا أهل العلم الظاهر . وهؤلاء القوم يدعون أمورا عظمى ، ظاهر الشرع يأباها . فحضر يوما مجلسه فانبهر عقله ، ورجع عن إنكاره وقال : هذا الرجل إنما يغرف من فيض بحر إلهى ، ومدد ربانى . ثم صار من أخص أصحابه . قلت : هو ابن عطاء الله السكندرى .

آدابه وسمو نفسه :

وذكر بعض المؤرخين أنه كانت لديه فضيلة ومشاركة ، وكان كثير الأدب مع الله ومع خلقه ، وله كرامات وأحوال ، و إشارات وأقوال . وكل ذلك مشهور عنه . وكان عالى الهمة رفيع النفس ، وكان للناس فيه اعتقاد كبير ، فكان يوقر مجلس القرآن ، وربما أخذته حال من الرهبة والخوف عند تلاوته ، فلما سئل فى ذلك قال : لكأنما أقرؤه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال مرة : لكأنما أقرؤه على الله عز وجل . وكان يكره النفاق ، ويبغض الرياء . فاذا قام إلى الصلاة صلى صلاة خفيفة ، فلا يطيل الركوع ، ولا يبالغ فى السجود ، ولا يسترعى الأسماع بقراءته ، ولا يستدعى الإلتفات إلى عبادته ، بل كان مقتصدا فى كل ذلك خوف الرياء وخشية أن تكون عبادته لغير الله تعالى . وذكر عنده رجل بالعلم والصلاح فرآه فى أثناء وضوئه يكثر من الوسوسة ، فغضب وقال : أين علمكم الذى تمدحون به الرجل ! العلم الذى ينطبع فى القلب كالبياض فى البياض ، والسواد فى السواد .

وزاره يوما بعض العائدين من الحج فقال لهم : كيف كان حجكم ؟ فقيل له : كان كثير الرخاء ، كثير الماء ، ابتعنا الماء بكذا ... فأعرض عنهم وقال : أسألهم عن أثر الحج فى نفوسهم : من تلبية الله ، وما فتح به عليهم ، وما وجدوه ، وما فازوا به ، فيجيبون برخاء الأسعار ، وكثرة المياه ، كأنهم لم يسألوا إلا عن ذلك ! .

إذا وصلت إلى البيت الحرام فلايكن همك البيت ، وليكن همك رب البيت ، ولا تكن ممن يعبد الأوثان والأصنام .

وكان يكره للأشياخ إذا جاءهم مريد أن يقولوا له : قف ساعة . ويقول : إن المريد يأتى إلى الشيخ بهمته المتوقدة ، فإذا قيل له : قف ساعة ! طفئ ما جاء به . وكان يقول عن شيخه : اصحبونى ولا أمنعكم أن تصحبوا غيرى ، فإذا وجدتم منهلا أعذب من هذا المنهل فرِدُوه . وكان إذا مُدح بقصيدة أجاز المادح بإقباله عليه ، وبإعطائه أجزل العطاء . وكان إذا أهدى إليه شيء يسير تلقاه ببشاشة وقبول ، وإذا أهدى إليه شيء كثير تلقاه بعز النفس وإظهار الغنى عنه . وكان لايثنى على مريد بين إخوانه خشية الحسد .

وقال يوما : دخلت على الشيخ أبى الحسن ، وفى نفسى أن آكل الخشن ، وألبس الخشن ، فقال لى : يا أبا العباس ، اعرف الله وكن كيف شئت .

وقد مكث بالاسكندرية ما شاء الله أن يمكث ، ما رأى وجه نائبها ، والمتولى لشؤونها ، ولا أرسل إليه فى شفاعة ، بالرغم من أن ذلك النائب طلب الاجتماع به فأبى الشيخ ذلك . ولما قال له الزكى الأسوانى[1] : يا سيدى . إن متولى الاسكندرية يؤثر الاجتماع بك ، والأخذ عنك ، فتكون شيخه ، ويكون من مريديك ! قال الشيخ : يازكى ، لست ممن يُلعب به ، والله إنى ألقى الله ولا يرانى ولا أراه ، فكان الأمر كذلك .

(١) هو الشيخ زكى الدين أبو بكر عرام بن إبراهيم بن يس الربعى الأسوانى السكندرى . كان فقيها شافعى المذهب عارفا بالفرائض مفتيا بها ، مع إجادة الحساب والجبر والمقابلة . وكان مولده بأسوان فى حدود سنة ٦٢٠ هـ . ثم وفد على الاسكندرية فكان من المعدلين ، وصحب الشيخ أبا الحسن الشاذلى وتزوج بابنته ، كما صحب الشيخ أبا العباس المرسى وأخذ عنهما التصوف وطريق القوم . وتوفى بالاسكندرية فى سنة ٦٩١ هـ (١٢٩٢ م) .

وأتى إليه متولى الثغر وناظره وشادّ الدواوين، فليلة حضورهم غلب عليه القبض ولم ينبسط للكلام كعادته حتى كان مريدوه يقولون : ليت ما كان يتكلم به معنا كان ليلة حضورهم .

وحضر إليه الشجاعى[1] يوما، وهو فى بحبوحة عزه، وتمكنه من السلطنة، فما أوى الشيخ إليه عنان همته، ولا فوق نحوه سهام عزيمته . ولما استعرض الشجاعى رغائب الشيخ ومطالبه قال الزكى الأسوانى : يا سيدى . اطلب منه أرضا يزرعها أصحابك! فقال : يا زكى هذا ما لا يكون أبدا .

وكان إذا نام ببلد فى السفر، وعرف أن كبير ذلك البلد يريد الاجتماع به، يسافر من ليلته قبل الفجر ولا يجتمع به .

---

(١) هو الأمير علم الدين سنجر الشجاعى . كان مدبر المملكة فى عهد السلطان قلاون، وكان يبالغ فى المصادرات واستخراج الأموال . وكانت فيه شهامة وصرامة واضطلاع بالأعباء الجسام، ولذلك كان السلطان قلاون وأولاده يثقون به ويولونه الولايات العظيمة . وهو الذى قام بالاشراف على عمارة المدرسة والمارستان المنصورى بخط بين القصرين (شارع المعز لدين الله) فى سنة ٦٨٢هـ. ثم ولى نيابة الشام وزيدت إقطاعاته ورواتبه عما كان لنواب الشام. وافتتح عدة بلاد بالساحل وأجلى عنها الافرنج الذين كانوا ملكوها من سنوات. وكان مطلق التصرف فى أموال الخزانة، ولذلك حامت حوله الظنون فصودر فى أموال جسيمة، وحبس ثم أطلق، وعاد إلى تولى المناصب الكبيرة، حتى بلغ مرتبة الوزارة للملك الناصر محمد بن قلاون . ثم ثار به الأمراء فقتلوه فى سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م) . وطيف برأسه فى القاهرة ومصر، وكان موضع شماتة الناس لما نكبهم به من المظالم .

المأثور من بديع كلامه

كان الشيخ أبو العباس رحمه الله، يفيض على تلاميذه ومريديه، وحاضرى مجالس درسه ووعظه، وشاهدى حضراته التى كان يقيمها لذكر الله — بكلمات بديعة المعانى، بليغة المبانى، ملئت بالعبارات الشريفة المغزى، وحفلت بالإشارات الجليلة المرمى، يفسر بها آيات من كتاب الله، أو يشرح فيها بعض أحاديث رسول الله، أو يعلق بها على كلام بعض الصالحين، أو يرسلها كريمة إلى قلوب المتقين. وبعد البحث والتنقيب عثرت له على طائفة صالحة منها، رأيت أن أختار أفضلها، وأختص بالإيثار أنفعها وأجلها، وأعرضها فى هذه الصفحات لينظر فيها الإمام المفسر، ويزنها العالم المحدث، ويهيم بها الشيخ المتصوف، وينتفع بمبادئها كل محب للاطلاع، ولا خفاء أنها صدرت عنه على أسلوب القوم، وبمصطلح أهل الطريق. وانبدأ قبل كل شىء بما فسر به آيات من القرآن الكريم.

⁂

تفسيره لآى من القرآن:

١ — قال فى قول الله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾. علم الله سبحانه وتعالى عجز خلقه عن حمده، فحمد نفسه بنفسه فى أزله. فلما خلق الخلق، اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده، فقال: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. أى قولوا: ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. أى أن الحمد الذى حمد به نفسه بنفسه هو له، لا ينبغى أن يكون لغيره. فعلى هذا يكون الألف واللام عهديتين.

٢ — وقال فى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. إياك نعبد شريعة، وإياك نستعين حقيقة. إياك نعبد إسلام، وإياك نستعين إحسان. إياك نعبد عبادة، وإياك نستعين عبودية. إياك نعبد فرق، وإياك نستعين جمع.

٣ — وقال فى قوله تعالى: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. عموم المؤمنين يقولون: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل . فإنه حصل لهم التوحيد، وفاتهم درجات الصالحين . والصالحون يقولون: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . معناه نسألك الثبات فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل . فإنه حصل لهم الصلاح، وفاتهم درجات الشهداء . والشهداء يقولون: ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل . فإنه حصل لهم درجات الشهداء، وفاتهم درجات الصدّيقين . والصدّيقون يقولون : ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل . فإنه حصل لهم درجات الصديقية، وفاتهم درجات القطبانية . والقطب يقول : ﴿إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ . أى بالتثبيت فيما هو حاصل، والإرشاد لما ليس بحاصل . فإنه حصل له علم رتبة القطبانية، وفاته علمٌ إذا شاء الله أن يطلعه عليه أطلعه .

٤ — وقال فى قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ . كل موضع ذكر فيه المصلين فى معرض المدح، فإنما جاء لمن أقام الصلاة، إما بلفظ الإقامة، أو بمعنى يرجع إليها . قال الله سبحانه وتعالى : ﴿الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة﴾ . ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ﴾ . ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ . ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ﴾ . ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ . ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةَ﴾ . ولما ذكر المصلين بالغفلة قال: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ . ولم يقل فويل للمقيمين الصلاة . والإقامة هى أنه إذا صلى المؤمن صلاة فتقبلت منه، خلق الله تعالى من صلاته صورة فى ملكوته راكعة ساجدة الى يوم القيامة . وثواب ذلك لصاحب الصلاة .

٥ — وقال فى قوله تعالى : ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾ . قيل: إنما وقع التفصيل فى العبارة أدبا من الله تعالى لنا، فأضاف

المحاسن إليـه وأضاف المساوئ إلينا . و إن كان فعـل العبد كله خلق الله ، حسنهُ وسيئهُ ، كما قال : ﴿ فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا ﴾ . فأضاف ذلك الى الله . وقال فى السفينة : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ . ولم يقل فأراد ربك أن يعيبها ، أدبا فى التعبير ، وكما قال على لسان إبراهيم عليه السلام : ﴿ وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ . فأضاف المرض لنفسه والشفاء لله عز وجل . ومنهم من قال إن ذلك داخل فى مضمون القول ، و إن هذا التفصيل حكاه الله عنهم . والتقدير : ﴿ فَمَا لِهَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ . فى قولهم : ﴿ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ﴾ . ورد عليهم بقوله : ﴿ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ .

٦ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ﴾ . يولج المعصية فى الطاعة ، والطاعة فى المعصية . يطيع العبد الطاعة فيعجب بها ، و يعتمد عليها ، و يستصغر من لم يفعلها ، و يطلب من الله العوض عليها . فهذه حسنة أحاطت بها سيئات . و يذنب الذنب فيلجأ إلى الله فيه ، و يعتذر منه ، و يستصغر نفسه ، و يعظم من لم يفعله . فهذه سيئة أحاطت بها حسنات ، فأيهما الطاعة وأيهما المعصية ! !

٧ — وقال فى قوله تعـالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ . الولى لا يزال مضطرا .

٨ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ . فذكر بعض الناس فى هذا تأويلا لا يُرضى ولا ينبغى أن يلتفت إليه ، وهو أنه كان حبها لله وحده ، فلما ولدت انقسم حبها . وليس كما قال هذا القائل ، لأنها صديقة كما أخبر الله عنها : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ . والصدّيق والصدّيقة لا ينتقلان من حالة إلا الى أكمل منها ، ولكنها كانت فى بدايتها متعرفا إليها بخرق العادة ، وسقوط الأسباب . فلما تكمل يقينها ، أُرجعت إلى الأسباب . فالحالة الثانيـة أتم من الحالة الأولى .

٩ — وقال فى قوله تعالى حاكيا عن الشيطان : ﴿ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ . ولم يقل من فوقهم ولا من تحتهم ؛ لأن فوق للتوحيد ، وتحت للاسلام . والشيطان لا يمكنه أن يأتى المؤمن من توحيده ولا من إسلامه . فلو علم الشيطان أن ثم طريقا توصل إلى الله أفضل من الشكر لوقف عليها . ألا ترى إلى قوله : ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ . ولم يقل صابرين ، ولا خائفين ، ولا راجين ... ؟ !

١٠ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ . سمى " خليلا " لأنه خالل سره محبة الله تعالى . قال الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح منى * وبهذا سُمى الخليل خليلا
وإذا ما نطقتُ كنتَ كلامى * وإذا ما صَمتُّ كنتَ الغليلا

١١ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ وإبراهيمَ الذى وَفَّى ﴾ . وفى بمقتضى قوله : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ . وما سمى إبراهيم الخليل " فتى " إلا لكونه كسر الأصنام الحسية التى وجدها . وأنت يا ولدى لك أصنام خمسة معنوية ، فإن كسرتها فأنت فتى : النفس ، والهوى ، والشيطان ، والشهوة ، والدنيا . وافهم هُهنا " لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا على " وليست الفتوة بالماء والملح ، وإنما الفتوة الإيمان والهداية [1] .

---

(١) يشير أبو العباس بكلمه هذه إلى فرقة كانت معروفة فى ذلك العهد « بالفتيان » ، وتنعت « بالفتوة » . وهذه الفرقة كانت تشبه فى كثير من الوجوه « فرقة الكشافة » فى عصرنا الحاضر . غير أنها كانت فى مبادئها وآدابها أرق شأنا وأحكم نظاما . أنشأها الخليفة الناصر لدين الله العباسى فى بغداد ثم انتشرت مبادئها فى البلاد الاسلامية ، وانتمى إليها كثير من الملوك والعلماء والأشراف . وقد أصدر الناصر منشورا عاما بانشائها فى سنة ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) . أبان فيه نظامها ، وأوضح آدابها ، وقرر مبادئها ، وسن فيه ما يجب على الفتى المنسوب إليها من الأخذ به ، من مكارم الأخلاق ، ومحاسن الصفات ، والتنزه عما يخل بالمروءة أو يمس الكرامات . كما شرع فيه مآخذ وعقوبات لمن يخالف مبادئها ، أو يخرج عليها .

وكان لهذه الفرقة أحزاب ، ولأحزابها رؤساء ونقباء وزعماء . وكان من يريد الدخول فيها يعقد له مجتمع يحضرونه ، ويقوم النقيب إلى الشخص الجديد فينزع عنه لباسه بيد ، ويلبسه لباس الفتوة بيد . وهو عبارة عن سراويل قصيرة ، ثم تدور عليهم ، وهم جلوس ، شربة فيها ماء وملح ، بعد أن يؤخذ عليه العهد فى الأخذ بمبادئها ، وهى : صدق الحديث ، وأداء الفرائض ، وأداء الأمانة ، واجتناب المحارم ، ونصرة المظلوم ، وصلة =

١٢ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ . من طاعاتهم وأعمالهم التى قاموا بها لله فى ليلهم، أن يشهدوها من أنفسهم .

١٣ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْـدِهِ ﴾ . لم يقل بنبيه ولا برسوله، وهو نبيه و رسوله . و إنما كان كذلك لأنه أراد أن يفتح باب السريان للأتباع . فأعلمنا أن الإسراء من بساط العبودية . والنبى صلى الله عليه وسلم كان له كمال العبودية، فكان له كمال الإسراء . أسرى بروحه وجسمه وظاهره و باطنه . والأولياء لهم قسط فى العبودية، فلهم قسط فى الإسراء، يُسْرَى بأرواحهم لا بأشباحهم .

١٤ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ ﴾ . إن المتقين فى جنات ونهر، فى هذه الدار وفى تلك الدار ؛ فى الدنيا فى جنات العلوم وأنهار المعارف، وفى الآخرة فى الجنة التى وعدوا بها . فى مقعد صدق، فى هذه الدار وفى تلك الدار . وعند مليك مقتدر، فى هذه الدار وفى تلك الدار .

١٥ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِى وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ . إنما قرن شكره بشكرهما لأنهما أصل فى وجودك .

= الرحم ، والوفاء بالعهد ، والعفو عند المقدرة ، واحتمال الأذى ، وبذل المعروف ، والتمسك بالكتاب والسنة ، وعدم مفارقة أحدهما للآخر ، والاخلاص فى صداقة الصديق على كل حال ، ومعاداة عدوّه فى كل حال ، ونصره ظالما أو مظلوما . ومن خالف مبدأ من هذه المبادئ أو أنكرها أو خرج عليها يحاكم و يؤخذ سراويله ، وتبطل عنه الفتوّة ، ويعاقب بما يرى أنه يستحقه .

وكانوا يردّون نظام المؤاخاة بينهم إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : حينما قدم المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار .

والفتوّة فى اللغة : الكرم والسخاء . و يعبر عنها فى الشريعة بمكارم الأخلاق . ولهم فى الفتوّة إسناد يرفعونه إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، حيث يقولون : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألبس عليا لباس الفتوّة وقال : «لا فتى إلا على» ثم أمره بأن يلبسه من يشاء . و يرون أن أقدم من تكلم فيها جعفر الصادق ، والفضيل بن عياض ، والامام أحمد بن حنبل ، وسهل بن عبد الله التسترى ، وأبو القاسم الجنيد . تختلف ألفاظهم ، وتأتلف أغراضهم .

وكان بعض الصوفية يقول : الفتوّة أن تقرّب من يقصيك ، وتكرم من يؤذيك ، وتحسن إلى من يسىء إليك ؛ سماحة لا كظما ، ومودّة لا مصابرة . وعند بعض العارفين أن الفتوّة ترك ما تهوى لما تخشى ، والفتى من يؤثر الخلق على نفسه فى الدنيا والآخرة . وكلها كما ترى مبادئ سامية ، وآداب عالية . يندر فى عصرنا من يأخذ بشىء منها . ولله الأمر من قبل ومن بعد .

١٦ — وقال في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . قَالَ أَلْقِهَا يَامُوسَى فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى . قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴾ . يقال للولى : وما تلك بيمينك أيها الولى؟ قال : هى دنياى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى . وغنمه أعضاؤه . ولى فيها مآرب أخرى . فيقال له : ألقها؟ فناء عنها فألقاها : فيكشف له عن حقيقتها ، فإذا هى حية تسعى . ثم يقال له : خذها ولا تخف؟ ولا يضره أخذها حين أخذها ، لأنه أخذها باذن ، كما ألقاها باذن . فأخذها من الوجه الذى به ألقاها . فأطاع الله فى أخذها ، كما أطاع الله فى إلقائها .

١٧ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ . إنما قال للرحمن ولم يقل للقهار ، ولا للعزيز ، لأن تشقق السماء بالغمام ، وتنزل الملائكة ، مظهران من مظاهر القهر والسطوة . فلو قال للقهار أو للعزيز ، لم يطق العباد ذلك ، وتفطرت قلوبهم . فرفق بهم أن قال : ﴿ الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ . وهكذا قوله : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴾ . ولم يقل الى القهار ولا الى العزيز ، لأن الحشر وهول المطلع شديد . فلاطفهم برحمانيته فى ظهور سلطان قهره .

١٨ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ . فهم قوم من هذا الخطاب ، أنهم أمروا بعداوة الشيطان فشغلهم ذلك عن محبة الحبيب . وقوم فهموا من ذلك ، أن الشيطان لكم عدو ، أى وأنا لكم حبيب . فاشتغلوا بمحبته فكفاهم من دونه . قيل لبعضهم : كيف صنعك مع الشيطان ؟ قال : وما الشيطان! نحن قوم صرفنا هممنا إلى الله فكفانا من دونه .

١٩ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ ﴾ . نزلت فى اليهود . ومن كان من فقراء هذا الزمان ، مؤثرا للسماع لهواه ، آكلا مما حرمه مولاه ، فهى نزعة يهودية ، لأن القوال يذكر العشق وما هو بعاشق ، والمحبة وما هو

يحب، والوجد وما هو يتواجد . فالقوّال يقول الكذب، والمستمع سماع له . ومن أكل من الفقراء طعام الظَّلَمَة حين يدعى إلى السماع، فهو يصدق عليه قول الله : ﴿ سماعون للكذب أكالون للسحت ﴾ .

٢٠ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ ﴾ . فى هذه الآية مدح لسيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ، أى أن هــذا القرآن لا تثبت له الجبال لو أنزل عليهـا ، وأنت يا محمد تثبت لنزوله، للقوّة الربانية التى أودعناك إياها . وفيها ذم للكافرين، أى أن هذا القرآن لو أنزل على جبل لخشع وتصدّع، وأنتم ما خشعتم ولا تصدّعتم .

٢١ — وقال فى قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ . على معاينة تعين سبيل كل أحد من الأتباع فتحمله عليها . وقد فتح الحق سبحانه وتعالى بقوله : ﴿ ومن آتبعنى ﴾ . باب البصائر للأتباع .

٢٢ — وقال فى قوله تعـالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ . جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة، ونبينا صلى الله عليه وسلم هو عين الرحمة .

٢٣ — وقال وقد سئل عن قوله تعـالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وقيــل له : من أين للعبــد أن يتق الله حق تقـاته ؟ ومن أين له أن لا يموت إلا وهو مسلم ؟ فقال : أقول : إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ . فكانوا قد خوطبوا أوّلا بتقــوى الله حق تقاته، وهو أن يُطاع فلا يُعصى ، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يُكفر . ثم خفف عنهم بقوله : ﴿ فآتقوا الله ما آستطعتم ﴾ . وقد يمكن الجمع بين الآيتين : ﴿ اتقوا الله ما آستطعتم ﴾. فى جانب الأعمال: ﴿ اتقوا الله حق تقاته ﴾ . فى جانب التوحيد . وقوله : ﴿ ولا تموتن إلا وأنتم مسـلمون ﴾ . لا تتعاطوا من الأعمال إلا أعمالا إذا متم عليها متم مسلمين .

٢٤ — وقال: قرأت مرة: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾. إلى أن انتهيت إلى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. ففكرت فى معنى هذه الآية فكشف لى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. روحا وعقلا: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾. نفسا وهوى.

٢٥ — وقال: وقد سأله سائل يا سيدى، لم قال عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. ولم يقل الغفور الرحيم؟ فقال: لأنه لو قال الغفور الرحيم لكان شفاعة من عيسى عليه السلام لهم فى المغفرة. ولا شفاعة فى كافر. ولأنه عُبِدَ من دون الله فاستحى من الشفاعة عنده وقد عُبِدَ معه.

٢٦ — وقال فى قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾. أى من النفس والهوى.

٢٧ — وقال فى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾. للناس أسباب، وسببنا نحن الإيمان والتقوى.

٢٨ — وقال فى قوله تعالى: ﴿يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾. الناس على قسمين: قوم وصلوا بكرامة الله إلى طاعة الله، وقوم وصلوا بطاعة الله إلى كرامة الله.

٢٩ — وقال فى قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾. الحق الذى خلق به كلَّ شىء كلمةُ ﴿كُن﴾. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ. قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾.

***

شرحه لبعض الأحاديث والآثار:

١ — قال فى قول النبى عليه الصلاة والسلام «سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه: إمام عادل، وشاب نشأ فى عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد

حتى يعود إليه، ورجلان تحابا فى الله، إجتمعا على ذلك وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن و جمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل تصدّق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ماتنفق يمينه » . الإمام العادل هو القلب . ورجل قلبه معلق بالمسجد حتى يعود إليـه، أى ورجل قلبـه معلق بالعرش ، فإن العرش مسجد قلوب الموقنين . ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، أى خاليا من النفس والهوى . ورجل تصـدّق بصدقة فأخفاها ، أى من النفس والهوى .

٢ — وقال فى قوله عليه السلام: « يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا » . أى دلوهم على الله ولا تدلوهم على غيره ، فان من دلك على الدنيا فقد غرك ، ومن دلك على الأعمال فقد أتعبك، ومن دلك على الله فقد نصحك .

٣ — وقال فى قوله عليه السلام: «رأيت الجنة فتناولت منها عنقودا ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا» . الأنبياء يطالعون حقائق الأشياء ، والأولياء يطالعون مُثُلَهَا . فلذلك قال عليه الصلاة والسلام : « رأيت الجنة » . ولم يقل : كأنى رأيت .

ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سأله : « كيف أصبحت ياحارثة » ؟ قال : «أصبحت مؤمنا حقا» فقال صلى الله عليه وسلم : «لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك» ؟ قال : «عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى ذهبها ومدرها ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنـة فى الجنة يتنعمون ، و إلى أهل النار فى النار يعذبون ، وكأنى أرى عرش ربى بارزا . من أجل ذلك أسهرت ليـلى وأظمأت نهارى » . فقال له الرسول صلوات الله عليـه : ياحارثة « عرفت فالزم » . ثم قال صـلى الله عليه وسلم : « عبد نوّر الله قلبه بنور الإيمـان » .

فقال حارثة : كأنى . ولم يقل : رأيت . لأن ذلك للأنبياء دونه .

وكذلك قول حنظلة الأسدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «تُذكرنا الجنة والنار حتى كأنا رأى عين » . ولم يقل : حتى نراها رأى العين . لما قدمناه .

ولو كان المسئول أبا بكر رضى الله عنه، لم يطالبه الرسول صلوات الله عليه بإقامة برهان على ما ادعى، لأن عظيم رتبة أبى بكر شاهد له من غير إظهار برهان. فأراد الرسول عليه السلام، أن يعرّفنا الفرق بين رتب أصحابه. فمنهم من هو كحارثة لما ادعى حقيقة الإيمان طولب ببرهانها. ومنهم من هو كأبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما يُثبت لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم الرتب، وإن لم يثبتوها لأنفسهم.

٤ — وقال فى قوله عليه السلام: «من عَرف نفسه عرف ربه». معناه من عرف نفسه بِذُلها وعجزها، عرف الله بعزه وقدرته.

٥ — وقال فى قوله عليه السلام: «أنا رحمة مهداة» الأنبياء إلى أممهم عطية، ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم هدية. وفرق بين الهدية والعطية، لأن العطية للمحتاجين، والهدية للمحبوبين.

٦ — وقال فى قوله عليه السلام: «الدنيا سجن المؤمن» شأن المسجون التحديق بعينيه، والإصغاء بأذنيه، متى يدعى فيجيب.

٧ — وقال فى قوله عليه السلام: «السلطان ظِل الله فِى الأرض» هذا إذا كان عادلا، وأما إذا كان جائرا، فهو ظل النفس والهوى.

٨ — وقال: مات رجل من أهل الصُّفَّةِ فَوُجد فى شملته ديناران، فقال النبى صلى الله عليه وسلم: «كَيَّتَانِ من نار». وقد مات على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من الصحابة، وتركوا أموالا فما قال فيهم ما قال فى هذا. لأنهم لم يبطنوا خلاف ما أظهروا. وهذا الذى كان من أهل الصفة أظهر الفاقة، وكان عنده هذان الديناران. فلما أظهر خلاف ما أبطن، قال الرسول عليه السلام: «كَيَّتَانِ من نار».

٩ — وقال فى قوله عليه السلام: «التاجر الصدوق يحشر مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة» فبأى طريق يحشر مع هؤلاء؟ يحشر مع الأنبياء، لأن شأنهم أداء الأمانة، وبذل النصيحة. وهذا التاجر أدى الأمانة، وبذل النصيحة

فيحشر مع الأنبياء بهذا الوصف . ويحشر مع الصدّيقين ؛ لأن الصدّيق شأنه الصفاء في الظاهر والباطن ، وقد استوى في ظاهره وباطنه . والتاجر الصدوق كذلك . فيحشر مع الصدّيقين بهذا الوصف . ويحشر مع الشهداء ؛ لأن الشهيد شأنه الجهاد . والتاجر الصدوق يجاهد نفسه وشيطانه وهواه . فيحشر مع الشهداء بهذا الوصف . ويحشر مع الصالحين ؛ لأن الصالح شأنه أخذ الحلال وترك الحرام . والتاجر الصدوق هذا شأنه . فيحشر مع الصالحين بهذا الوصف .

١٠ — وقال في قوله عليه السلام : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أي لا فخر لي بالسيادة ، وإنما الفخر لي بالعبودية . ولهذا المعنى كان الشيخ أبو العباس كثيرا ما ينشد :

يا عمرو نادِ عبدَ زهراءِ * يعرفه السامعُ والرائي
لا تدعُني إلا بيا عبدها * فإنه أشرف أسمائي

٭٭٭

تعليقه على أقوال بعض الصالحين :

ولأبي العباس رحمه الله تعليقات على أقوال بعض الصالحين ، كان يفسر بها ما يشكل منها ، أو يبين ما يرمون إليه مما يجول في خواطرهم ، أو يسنح لهم في بوادرهم ، أو يوضح المعنى الذي يجب أن يفهم منها على الوجه الذي يناسب أحوالهم ، وبالطريقة التي سروا عليها ، بأسلوب الصوفية . فمن ذلك :

١ — قوله في قول بشر الحافي (١) «إني لأشتهي الشّواء منذ أربعين سنة ، ما صفا لي ثمنه » من ظن أن هذا الشيخ مكث أربعين سنة ما وجد درهما حلالا يشترى به شواء ، فقد أخطأ . من أين له في الأربعين السنة ما يأكل وما يلبس ؟ وإنما المعنى في ذلك ، أن هؤلاء قوم أصحاب مراتب ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يدخلون في شيء ،

(١) هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافي . أصله من مرو ، وسكن بغداد . صحب الفضيل بن عياض ، وكان من العلم والورع على جانب عظيم ، ذا شأن كبير في أحواله وسلوكه ، وله كلام في الزهد والنسك يتناقله أتقياء الصوفية . مات ببغداد في ١٠ من المحرم سنة ٢٢٧ هـ (٨٤١ م) .

ولا يخرجون بشيء، ولا يخرجون من شيء، إلا باذن من الله وإشارة . فلو أذن له فى أكل الشواء لصفا له ثمنه .

٢ — وكان الحارث بن أسد المُحاسبي[1]، إذا مدّ يده إلى طعام فيه شبهة، تحرّك عليه عرق فى أصبعه . فسأل الشيخ أبا العباس سائل فقال : ياسيدى ! قد جاء أن أبا بكر الصدّيق رضى الله تعالى عنه، قُدِّمَ إليه لبن فأكل منه فوجد كدرته فى قلبه، فقال : من أين لكم هـذا اللبن ؟ فقال غلام له : كنت تكهنت لقوم فى الجاهلية فأعطونى ثمن كهانتى ! فتقيأ أبو بكر رضى الله عنـه، ثم قال : والله لو لم يخرج إلا بمصارينى لأخرجتها . فلم يكن على يد الصـدّيق عرق يتحرّك عليه إذا قدّم له طعام فيه شبهة. والصدّيق أولى بكل مزية من سائر الأمة. وقد وزن بالأمة فرجحها.

فقال الشيخ أبو العباس : الصدّيق رضى الله عنه كالوكيل المفوض إليه، مطهر من البقايا، فلا يحتاج إلى الإشارة . والحارث بقيت عليه البقايا، فلذلك ألزم الإشارة حتى لا يدخل فى شيء بنفسه وهواه . وأبو بكر طهر من النفس والهوى، فلا يحتاج إلى الإشارة. واعلم أن من حسن اختيار الله لأبى بكر، أن تناول من ذلك اللبن حتى يتكلف طرحه بعد شربه، فيثيبه الله على ذلك . وأيضا ليجعله قدوة للعباد، فيقتدى به من أكل طعاما فيه شبهة، ولم يعلم أن الأولى قيئه . وليس لقائل أن يقول: قد ضمنه بأكله ، وقد تناول منه أو تناوله وهو غير آثم، إذ هو غير عالم . فإن أبا بكر ما سأل عن اللبن إلا لمـا وجد له كدرة فى قلبه ، دل ذلك على أن الحرام أو الشبهة قد يؤثر فى القلب كدرة أو قسوة، وإن لم يعلم به متناوله وقت تناوله . وهكذا هم أصحاب التخصيص، إن وقع منهم أمر مثل هذا ونحوه. فهو من حسن اختيار الله لهم، حتى يفتح بهم السبيل للعباد . وكما أن من حسن اختيار الله لآدم أكله من الشجرة بعد أن نهى عنها حتى يتوب من الفعل، فيكون قدوة للتائبين . وحتى يتعرّف الله بحمله

---

(١) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصرى . سكن بغداد وأقام بها ، وكان من أكابر علماء القوم مع التفوق فى الفقه والأصـول والمعاملات ، وكان عديم النظير فى زمانه ، وهو أستاذ أكثر البغداديين . وله مصنفات مشهورة، وحكايات مذكورة . توفى ببغداد سنة ٢٤٣ هـ (٨٥٧ م) .

فيعلم أنه أكرم الأكرمين بوقفه على وجود ستره ولطفه . فيعلمه أنه اللطيف الخبير بعباده المؤمنين . وليكون أكل الشجرة سببا فى النزول، والنزول سببا فى الخلافة . فلذلك قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : أكرم بها معصية أورثت الخلافة . وقال : واللّه لقد أنزل الله آدم إلى الأرض من قبل أن يخلقه بقوله : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

٣ — وقال فى حكاية الجُنَيْد إذ قال : دخلت على السَّرِىّ [1] فوجدته متغيرا ، فقلت له : ما بالك يا أستاذ متغيرا ؟ فقال : دخل علىَّ شاب آنفا فقال لى : ما التوبة ؟ فقلت : أن لا تنسى ذنبك . فقال : بل التوبة أن تنسى ذنبك ! فما تقول أنت يا أبا القاسم ؟ قال : فقلت : القول عندى كما قال الشاب ، لأنى إذا كنت فى حال الجفاء ثم نقلنى إلى حال الصفاء، فذكر الجفاء فى وقت الصفاء، جفاء .

فقال الشيخ أبو العباس : كلام السرى أتم من كلامهما ، لأن السرى يدل على مبادئ المقامات ، وكذلك القدوة ملزم بالكلام على مقامات العُبَّاد، بداياتها ونهاياتها، وإنما تأتى النهايات من البدايات . والجُنيد لم يكن فى ذلك الوقت بمقام أن يكون قدوة ، وكذلك الشاب . فتكلما على أحوال أهل الإرتقاء فى نهاياتهم، فكلامهما يخص حالهما، وكلام السرى مَهيع مورد للسالكين .

٤ — وقال فى قول الجنيد [2] : « أدركت سبعين عارفا كلهم يعبدون الله على ظنّ ووهم، حتى أخى أبا يزيد، ولو أدرك صبيا من صبياننا لأسلم على يديه » معنى قوله

---

(١) هو أبو الحسن السرى بن مغلس السقطى . كان أوحد أهل زمانه فى الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد ، وهو خال الجنيد وأستاذه ، وهو أول من تكلم فى التوحيد ببغداد ، وكان مرافقا لمعروف الكرخى . وإليه ينتمى أكثر مشايخ بغداد . وبها مات سنة ٢٥١ ﻫ (٨٦٥ م) . ودفن بالشونيزية ، وقبره ظاهر بها مقصود بالزيارة .

(٢) هو سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج . كان أبوه يتجر فى الزجاج ، ولذلك قد يقال له القواريرى . أصله من نهاوند ، ونشأ بالعراق . وكان فقيها يفتى الناس على مذهب أبى ثور صاحب الشافعى وراوى مذهبه القديم . صحب خاله السرى السقطى ، والحرث بن أسد المحاسبى ، ومحمد بن على القصاب . وكان من أكابر الأئمة عند القوم ، وسيدا من أجل ساداتهم . وشهرته ذائعة بينهم . مات ببغداد سنة ٢٩٧ ﻫ (٩١٠ م) . وقبره بظاهر بغداد ، يقصده العام والخاص للزيارة والتبرك .

يعبدون الله على ظنّ ووهم . لا يريد بذلك ظنـا فى المعرفة ، ووهما فيها ؟ وكيف تجتمع المعرفة والظنّ أو الوهم . ! وإنمـا المراد أنهم وصلوا إلى مقامات توهموا أن ليس وراءها للموقنين مقام . وقوله : لو أدرك صبيا من صبياننا ؛ أى لتبين له أن فوق ذلك المقام مقام ، وفوق ذلك المقام مقام ، إلى ما لا آخر له . ومعنى قوله : لأسلم على يديه . أى لانقاد له . فالاسلام هو الانقياد .

٥ — وقال فى قول سهل بن عبد الله[١] « لا تكونوا أبناء الدهور ، ولا أبناء العدّ والإحصاء ، وكونوا من أبناء الأزل ، أشقى ، أو سعيد » يقول أحدهم : صليت كذا كذا ركعة ، ختمت كذا كذا ختمة ، حججت كذا كذا حجة . فهؤلاء أبناء العدّ والإحصاء . فهم إلى عدّ سيآتهم أحوج منهم إلى عدّ حسناتهم . وأما أبنـاء الدهور فيقول أحدهم : لى فى طريق الله سبعون عاما . لى فى طريق الله ستون سنة . وكونوا من أبناء الأزل أشـقى أو سعيد . يعنى لاحظوا ما سبق فى علم الله ، ولا تتكلوا على مالكم من العلم والعمل ، ولكن ارجعوا لوجود الأزل .

٦ — وقال فى قول أبى يزيد[٢] « خضت بحرا وقف الأنبياء بساحله » إنمـا يشكو أبو يزيد بهذا الكلام ، ضعفه وعجزه عن اللحاق بالأنبياء ، ومراده أن الأنبياء خاضوا بحار التوحيد ، ووقفوا من الجانب الآخر على ساحل الفرق ، يدعون الخلق إلى الحوض ؛ أى فلو كنت كاملا لوقفت حيث وقفوا .

٧ — وقال : كان الجنيد قطبا فى العـلم ، وكان سهل قطبا فى المقام ، وكان أبو يزيد قطبا فى الحال .

---

(١) هو أبو محمد سهل بن عبد الله التسترى . كان أحد أفاضل القوم وأئمتهم ، ومن أكابر علمائهم المتكلمين فى علوم الإخلاص ، والرياضات ، وعيوب الأفعال . توفى سنة ٢٨٣ هـ (٨٩٦ م) .

(٢) هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى . كان من كبار الصالحين . صاحب أحـوال وأقوال وإشارات ، وله كلام جيد فى معرفة الله تعالى . توفى سنة ٢٦١ هـ (٨٧٤ م) .

٨ — وقال فى حكاية سمنون[١]، وأنه لما أنشد قوله :

وليس لِى فِى سِواكَ حظٌ ٭ فكيف ما شئتَ فاختبِرنِى[٢]

وابتلى بعلة الاستبراء — وهى احتباس البول — فتجلد أربعة أيام والألم يزيد . وفى صبيحة اليوم الرابع دخل عليه أحد أصحابه وقال له : ياسيدى ! سمعت البارحة صوتك عند دجلة، وأنت تستغيث إلى الله، وتسأل رفع ما نزل بك — ولم يكن فعل ذلك — فعلم أنها إشارة من الله له بالسؤال . فصار يدور على صبيان المكاتب ويقول : ادعوا لعمكم الكذاب .

قال الشيخ أبو العباس : يرحم الله سمنونا، ليته عوّض ما قال : فكيف ما شئت فاختبرنى . كان قال : فكيف ما شئت فاعف عنى ؟ فطلب العفو أولى من طلب الاختبار .

٩ — وقال : إنما بدأ القشيرى فى رسالته بالفضيل بن عياض[٣]، وإبراهيم ابن أدهم[٤]، لأنهما قد تقدم لهما زمن قطيعة، ثم أقبلا، فأقبل الله عليهما . فبدأ بذكرهما بسطا لرجاء المريدين الذين كانت تقدمت منهم الزلات، وسبقت منهم المخالفات ،

(١) هو أبو الحسن سمنون بن حمزة الخواص . كان من الهائمين فى حب الله . وكان يتكلم فى المحبة أحسن كلام ، صحب السرى السقطى وغيره من الصالحين . وكان يجلس على شاطئ دجلة وينشد :

كان لى قلب أعيش به ٭ ضاع منى فى تقلبه
رب فاردده علىّ فقد ٭ عيل صبرى فى تطلبه
وأغث ما دام لى رمق ٭ يا غياث المستغيث به

وكان يسمى نفسه : سمنون الكذاب . مات سنة ٢٩٨ هـ (٩١٠ م) ببغداد .

(٢) قلت : ليس هذا البيت من شعر سمنون وإنما هو من أبيات تروى للحلاج . انظر صفحة ٧٦

(٣) هو أبو على الفضيل بن عياض بن مسعود التيمى اليربوعى . عربى الأصل ، خراسانى المنشأ . كان مولده بقرية من قرى مرو يقال لها فندين . وكان من أفاضل الصالحين ، وأماثل الزهاد والمتنسكين . وله كلمات تعد من الحكم الغوالى . توفى بمكة سنة ١٨٧ هـ (٨٠٣ م) .

(٤) هو أبو إسحق إبراهيم بن أدهم بن منصور . كان من أبناء الملوك بكورة بلخ . ثم تجرد للعبادة وطلب الحقيقة ، فساح سياحات كثيرة على قدم الزهد والورع ، وكان من أكابر النساك ، مع وفرة العلم وكثرة العمل . توفى بالشام سنة ١٦٢ هـ (٧٧٩ م) .

ثم رجعوا إلى استفراغ أبواب العنايات، إذ لو بدأ بذكر الجنيد، وسهل بن عبد الله التسترى، وعقبة الغلام (١)، وأمثالهم ممن نشأ فى طريق الله تعالى لقال القائل: ومن يدرك هؤلاء؟ لم تسبق لهم زلات، ولم تتقدم منهم مخالفات؟ ولأن إبراهيم كان من ملوك الدنيا، فأصبح وهو كذلك فما جاء وقت الظهر إلا وهو من كبار الأولياء. فبدأ به صاحب الرسالة ليعلم أن فضل الله ليس بعمل.

١٠ — وقال فى قول بعضهم « لا يكون الصوفى صوفيا حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة » ليس معنى ذلك، أن لا يقع منه ذنب عشرين سنة! وإنما معناه عدم الإصرار. وكلما أذنب تاب واستغفر على الفور. والملك الموكل بكتب السيئات لا يكتب السيئة حتى ينتظر العبد لعل أن يرجع أو يتوب، وكلما أراد أن يكتبها، قال له ملك اليمين: لا تكتب، فعسى أن يتوب. إلى أن يبلغ عددا: إما لسبع، وإما لعشر — الشك منى — فحينئذ يكتبها سيئة. فلذلك جاء أن صاحب اليمين أمين على صاحب الشمال.

١١ — وقال ابن عطاء الله: قرأت على أبى العباس كتاب "الرعاية" للمحاسبى فقال: جميع ما فى هذا الكتاب يغنى عنه كلمتان: اعبد الله بشرط العلم، ولا ترض عن نفسك أبدا. ثم لم يأذن لى فى قراءته بعد.

١٢ — وقال فى قول بعض السلف « لو كُشف الغطاء ما ازددت يقينا ». أى لو كشف الغطاء للنفس لم أزدد يقينا فيما طالعه القلب.

١٣ — وقال: كان ببلاد المغرب ولى من الأولياء يتكلم على الناس، وكان بادنا. فجلس يوما يتكلم على الناس. فقال رجل مكشوف الرأس كبيره: هذا يزهدنا فى الدنيا وهو كالدب..! فكوشف به الشيخ فقال من فوق المنبر: ياأبا رويس؟ ما سُمّنى إلا حُبّه! ثم أنشد:

(١) هو عتبة بن أبان (الغلام) وإنما قيل له الغلام لأنه كان فى العبادة والاجتهاد كأنه غلام رهبان. وكان يأوى إلى المقابر ويخرج إلى الصحارى للتفرد والعبادة، ولا يدخل البصرة إلا فى يوم الجمعة. توفى سنة ١٧٧ هـ (٧٩٣ م).

وقائِلٍ لستَ بِالمحب ولـو * كنتَ محِبا لَذُبتَ مذ زمنِ
أحببتُـه والفـؤادُ فِى حُرَقٍ * لم تذقِ الحبَّ كيف تَعرِفُنِي
أحب قلبِي وما دَرَى بَدنِي * ولو درى ما أقام فِي السِّمَنِ

١٥ — وحَكَى عن الشيخ عبد الرزاق، أن رجلا من أهل المهدية جاءه، فقال له الشيخ : أرى عليك أثر نعمة، فمن أين أنت، وما قصتك؟ فقال : يا سيدى! كنت من أكابر المهـدية وأعيانها وأكثرها مالا وعزا ، فورد علينا رجل يَدعى أنه من الدالين على الله . فجئت إليه وأنا متطلع متحرق على الوصول إلى الله . فقال لى : إنك لا تصل إلى هذا الأمر حتى تخرج عن مالك كله، وحتى تطلق نساءك بتاتا، وحتى تغير زيك . . ! ففعلت ذلك، فما ازداد قلبى إلا قسوة . فضاق صدرى، وحرت فى أمرى، ولم أطق أن أقيم فى المهدية، وقد ذهب ماكنت فيه من المـال والجاه، ولم أتعوض عن ذلك شيئا فى باطنى، فجئت إلى هُهنا قاصدا للحج . فقال الشيخ: دَعَوْا على غير بصـيرة، قاتلهم الله . أمكث عندنا! فلما جاء أوان الحج أرسله الشيخ مع بعض أهل الاسكندرية فحج، ثم رجع إلى الشيخ بالاسكندرية . فلما جاء أوان السفر إلى المغرب قال له الشيخ : إذهب إلى بلدتك ، فإذا وصلت إليها فإن الناس يسمعون بك، ويخرجون إليك مسرعين ، و يعرضون عليـك الملابس والمراكب ، فخـذ أفضلها ملبسا ، وأحسنها مركبا، وادخل المهدية ، فما حمـل إليك من الدنيا فاقبله ، وسيعيد الله إليـك ماكان لك وأكثر منه ، وتجـد زوجاتك قد طلقهن أزواجهن فراجعهن ، وتنال من العز والرفعة والغنى أكثر مما كنت فيه . فاذا تكمل لك ذلك كله فتح الله عينى قلبك . فسافر الرجل وأتى ساحل المهدية، فسمع الناس أن فلانا أتى من المشرق — وليس فى البلدة إلا من له عليه يد ومعروف — فخرجوا يُهْرعون إليـه بالملابس السنية ، والمراكب البهية ، فلبس أفضلها ملبسا ، وركب أحسنها مركبا، ودخل المهـدية ، فأهديت إليـه الهدايا ، وحملت إليـه التحف

والأموال ، ووجد زوجاته قد طلقهن أزواجهن ، وانقضت عدّتهن ، فراجعهن . فتكمل له جميع ما وعده الشيخ به فى ذلك اليوم . ثم فتح الله عينى قلبه .

١٦ — وحدّث أن ملكا من الملوك قال لبعض العارفين : تمنّ علىّ ؟ فقال له : أتقول لى ذلك ولى عبدان قد ملكتُهما وملكاك ، وقهرتُهما وقهراك ؟ وهما الشهوة والحرص ! فأنت عبد عبدى ، فكيف أتمنى عليك ، وأنت عبد عبدى ! ؟

١٧ — وقال فى قول بعض أهل الطريق « العارف وسعته المعرفة ، والورع ضيق عليه التورّع » لا تظنن أن قولهم العارف وسعته المعرفة ، أنه يأكل حراما أو ما فيه شبهة ، ولكن العارف ذو بصيرة منيرة تكشف له ما غُطى عن الورِع ، فيمدّ يده إلى الطعام لعلمه بحله وسلامته من الشبهة ، على ما أشهدته بصيرته . والورع مستور ذلك عنه ، فلذلك ربما مدّ العارف يده إلى ما قبض المتورّع يده عنه .

١٨ — وقال فى دعوى بعض أهل الطريق « والله ما جلست مجلسى هذا حتى كان الطيران فى الهواء ، والمشى على الماء ، وطى الأرض ، تحت سجادتى هذه » .

١٩ — وقال : جميع ما فى كتب القوم ، عبرات من سواحل بحر الحقيقة .

❖

كلامه على مبادئ أهل الطريق :

قال رحمه الله تعالى :

١ — جميع أسماء الله تعالى إذا أسقطت منه حرفا أذهبت دلالته على الله . كالعليم ، والقادر ، والرحيم ، وغير ذلك من أسمائه الحسنى . إلا إسمه « الله » فإنك إذا أسقطت الألف بقى « لله » و إذا أسقطت اللام بقى « له » و إذا أسقطت اللام الثانية بقى « هو » وهو النهاية فى الإشارة . وقال الحسين بن منصور الحلاج[1] :

---

(١) هو أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج الفارسى ، كان من فحول العلماء ، وأكابر الفضلاء . والناس فى أمره بين معتقد فيه الصلاح ، وبين مرجح غير ذلك . وقد قامت الدعوى ضدّه عند على بن عيسى الوزير فلم ير النظر فى شأنه فاستعفى وقام على مناظرته حامد بن العباس وكان طاغيا فاخدع الفقهاء ، وانتزع منهم فتوى بحل دمه فقتل ومثل به جزاء إلحاده . كما زعم . مع أنه كان كثير التعبد والمجاهدة والاستقامة على الطريق . وكان قتله ببغداد سنة ٣٠٩ هـ (٩٢٢م) والله أعلم بحاله ، فهو الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور . ==

أحرفٌ أربعٌ بِها هام قلبِي * وتلاشت بِها همومِي وفِكرى
ألِفُ ألَّف الخلائق بِالصُّنـ * ـع ولامٌ على الملامةِ تجرِى
ثم لامٌ زِيادةٌ فِي المعانِي * ثم هاءٌ بِها أهِيمُ، أتدرِى؟

٢ — جميع أسماء الله للتخلق، إلا اسمه «الله» فإنه للتعلق. فليكن ذكرك: «الله» فإن هذا الإسم سلطان الأسماء، وله بساط وثمرة، وبساطه العلم، وثمرته النور. والنور ليس مقصودا لنفسه، وإنما يقع به الكشف والعيان.

٣ — عبد هو فى الحال بالحال، وعبد هو فى الحال بالمحوّل. فالذى هو فى الحال بالحال: عبد الحال، والذى هو فى الحال بالمحوّل: عبد المحوّل. وأمارة من هو فى الحال بالحال، أن يأسى عليها إذا فقدها، ويفرح بها إذا وجدها. وأمارة الذى هو فى الحال بالمحوّل، أن لا يفرح بها إذا وجدت، ولا يحزن عليها إذا فقدت.

٤ — كل سوء أدب يثمر لك أدبا، فهو أدب.

٥ — المؤمن لا يرضى عن نفسه بالخير إذا كان فيه. لأن فوق الخير خيرات. أتراه يرضى بالشر؟

٦ — الناس على ثلاثة أقسام: قوم غلبت حسناتهم سيآتهم، فهم فى الجنة قطعا، وقوم تساوت حسناتهم وسيآتهم، فلا يدخلون النار قطعا. وقوم غلبت سيآتهم حسناتهم، فلا يخلدون فى النار قطعا.

٧ — الدخول فى الجنة بالإيمان، والخلود فيها بالنية، والدرجات فيها بالأعمال. والدخول فى النار بالشرك، والخلود فيها بالنية، والدركات فيها بالأعمال.

٨ — الكائنات على أربعة أقسام: جسم كثيف، وجسم لطيف، وروح شفاف، وسر غريب، فالجسم الكثيف بمجرده جماد، والجسم اللطيف بمجرده جان، والروح الشفاف بمجرده ملك، والسر الغريب هو المعنىُّ المسجود له. فالآدمى

= ومن شعره قوله:

كل بلاء على منى * فليتنى قد أخذت عنى
أردت منى اختبار سرى * وقد علمت المراد منى
وليس لى فى سواك حظ * فكيفما شئت فاختبرنى

بظاهر صورته جماد، و بوجود نفسه وتخيلها وتشكلها جان، و بوجود روحه ملك. وأعطى زائدا على ذلك : السر الغريب . فلذلك استحق أن يكون خليفة .

٩ — الأدنى يُشرف على الأعلى ولا يحيط به ، والأعلى يحيط بالأدنى . فالأولياء لهم إشراف على مقامات الأنبياء ، وما لهم الإحاطة بمقاماتهم ؛ والأنبياء يحيطون بمقامات الأولياء .

١٠ — ليس العجب ممن تاه فى نصف ميل ، أربعين سنة[1]، إنما العجب ممن تاه فى مقدار شبر، ستين أو سبعين سنة، وهو البطن .

١١ — الشوق على قسمين : شوق على الغيبة لا يسكن إلا بلقاء الحبيب . وهو شوق النفوس . وشوق الأرواح على الحضور والمعاينة . فإذا رفعك إلى محل المحاضرة والشهود المسلوب عن العلل، فذاك مقام التعريف : إيمانا حقيقيا. وذاك ميدان تنزل أسرار الأزل . فإذا أنزلك إلى محل المثاغرة[2] والجهاد ، فذاك مقام التكليف المقيد بالعلل، وهو الإسلام الخفى . ميدان تجلى حقائق الأبدية. والمحقق من لا يبالى بأى صفة يكون. لأن صفتك تميل لا أنت، والصفة من العين للعين، وهو ظهورك . والإسم للسان، وهو نطقك . والاسم حقيقة الصفة، والصفة حقيقة الوجود . والأسرار منزلة عن الوجودية للصديقية . والحقائق متجلية عن الصفات بالولاية لأهل العلوم الظاهرة ، وعن الاسم بالدليل لأهل السعاية . وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: «يا أبا جُحيفة: سائل العلماء، وخالط الحكماء، وجالس الكبراء». فالعالم يدلك بالعلم من الأسماء، ونهايته الجنة . والحكيم المقرب يحملك باليقين وبالحقائق من الصفات ، ونهايته منازل القربة . وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ . والكبير يدلك بالأسرار من الوجود على كبير الصفاء والنزاهة، ونهايته الله. وتجتمع المراتب الثلاثة فى الكبير: فيحمل قوما بالعلم، وقوما بالحقائق، وقوما بالأسرار . وهم الأنبياء، وأبدال الرسل، وهم البصراء :

---

(١) يشير بذلك إلى تيه بنى إسرائيل فى صحراء سينا بعد خروجهم من مصر صحبة سيدنا موسى عليه السلام .

(٢) المثاغرة : التزام الثغر والمرابطة فيه لجهاد أعداء الله ، والاستشهاد فى سبيل الله .

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ . أى على معاينة يعاين لكل صنف طريقهم فيحملهم عليها، وهى النيابة . أما هو فقد انفرد بحالة لا تعرف لعظيم قربه :

وغـنَّى لِى مُنَى قلبى * وغنَّيتُ كما غنَّى
وكُنا حيثما كانوا * وكانوا حيثما كُنا

١٢ — أوقات العبد أربعة لا خامس لها : النعمة، والبلية ، والطاعة، والمعصية؛ ولله عليك فى كل وقت منها سهم من العبودية، يقتضيه الحق منك بحكم الربوبية؛ فمن كان وقته الطاعة، فسبيله شهود المنة من الله عليه، إذ هداه لها ووفقه للقيام بها. ومن كان وقته المعصية، فسبيله الاستغفار والتوبة. ومن كان وقته النعمة فسبيله الشكر، وهو فرح القلب بالله . ومن كان وقته البلية، فسبيله الرضا بالقضاء والصبر. والرضا رضى النفس عن الشهوات . والصبر مشتق[1] من الإصبار، وهو الغرض المنصوب للسهام . وكذلك الصابر ينصب نفسه غرضا لسهام القضاء ، فإن ثبت لها فهو صابر . والصبر ثبات القلب بين يدى الرب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أعطى فشكر، وابتُلى فصبر، وظُلِم فغفر ، وظَلم فاستغفر » . ثم سكت فقالوا : يا رسول الله ! ماذا له؟ فقال: « أُولَـٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ » . أى لهم الأمن فى الآخرة وهم مهتدون فى الدنيا .

١٣ — العارف لا دنيا له ، لأن دنياه لآخرته، وآخرته لربه . والزاهد غريب فى الدنيا ، لأن الآخرة وطنه . والعارف غريب فى الآخرة ، فإنه عند الله ؛ ولن يصل الولى إلى الله حتى تنقطع عنه شهوة الوصول إلى الله .

١٤ — الخوف على قسمين : خوف العامة، وخوف الخاصة . فخوف العامة على أجسادهم من النار . وخوف الخاصة على خلعهم التى كساهم الله أن تُدنَّس

(١) الصبر فى اللغة : الحبس . وقولهم مات فلان صبرا . أى أمسك وحبس ومنع من الدفاع عن نفسه ثم رمى حتى مات . وأما الإصبار بالمعنى الذى جاء به أبو العباس فلم يعرفه علماء اللغة . على أنه ليس يبعيد عن نظر التحقيق فى باب المجاز .

بالمخالفة . والعامة إذا خُوِّفوا خافوا ، وإذا رَجَوا رُجوا . والخاصة متى خوفوا رجوا ، ومتى رجوا خافوا .

١٥ — كان الإنسان بعد أن لم يكن . وسيفنى بعد أن كان . ومن كلا طرفيه فهو عدم .

١٦ — خلق الله الآدمى وقسمه على ثلاثة أجزاء : لسانه جزء ، وجوارحه جزء ، وقلبه جزء . وجعل على كل جزء حفيظا ، فقال : ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾ . وقال : ﴿وَمَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيه﴾ . وتولى حفظ القلب بنفسه ، فقال : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي نُفُوسِكُمْ فَاحْذَرُوه﴾ . وسلط على الجوارح الشيطان . واقتضى من كل جزء وفاء ما ألزم به : فوفاء القلب أن لا يشتغل بهمّ دنيا ، ولا يمكر ولا يحسد . ووفاء اللسان أن لا يغتاب ، ولا يكذب ، ولا يتكلم إلا بما يعنيه . ووفاء الجوارح أن لا يسارع بها إلى معصية ، ولا يؤذى أحدا من المسلمين . فمن وقع من قلبه فهو منافق ، ومن وقع من لسانه فهو كافر ، ومن وقع من جوارحه فهو عاص .

١٧ — صلاح العبد فى ثلاثة أشياء : معرفة الله ، ومعرفة النفس ، ومعرفة الدنيا . فمن عرف الله خاف منه . ومن عرف الدنيا زهد فيها . ومن عرف النفس تواضع لعباد الله .

١٨ — قال لى شيخى : لا تصحب إلا من يكون فيه أربع خصال : الجود فى القلة ، والصفح عن الظَلَمة . والصبر على البلية ، والرضى بالقضية .

١٩ — لا يُدخل على الله إلا من بابين : من باب الفناء الأكبر ، وهو الموت الطبيعى . أو من باب الفناء الذى تعنيه هذه الطائفة .

٢٠ — السماء عندنا كالسقف ، والأرض كالبيت . وليس الرجل عندنا من يحصره هذا البيت .

٢١ — نحن فى الدنيا بأبداننا ، مع وجود أرواحنا . وسنكون فى الآخرة بأرواحنا ، مع وجود أبداننا .

٢٢ — الفرق بين معصية المؤمن، ومعصية الفاجر، من ثلاثة أوجه : المؤمن لا يعزم عليها قبل فعلها ، ولا يفرح بها وقت الفعل، ولا يصر عليها بعد الفعل . والفاجر ليس كذلك .

٢٣ — ليس الشأن من تطوى له الأرض، فإذا هو بمكة أوغيرها من البلدان، إنما الشأن من تطوى عنه أوصاف نفسه، فإذا هو عند ربه[1] .

٢٤ — نخرج الزهاد والعباد من هذه الدار وقلوبهم مقفلة عن الله .

٢٥ — من لم يتغلغل فى هذه العلوم مات مصرًا على الكبائر وهو لا يعلم .

٢٦ — كل شيء نهاك الله عنه فهو شجرة آدم . لما أكل من الشجرة نزل إلى الأرض للخلافة ، وأنت إذا أكلت من شجرة النهى تنزل لماذا ؟ إنما تنزل إلى أرض القطيعة .

٢٧ — إن الله لما خلق الأرض اضطربت فأرساها بالجبال . قال الله عز وجل: ﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ . كذلك لما خلق الله النفس اضطربت، فأرساها بجبال العقل .

٢٨ — ابن آدم، خلق الله الأشياء كلها من أجلك، وخلقك لأجله . فلاتشتغل بما هو لك عمن أنت له . فالأكوان كلها عبيد مسخرة ، وأنت عبد الحضرة .

٢٩ — إذا أتانا مريد له شيء من الدنيا لا نقول له : اخرج عن دنياك وتعال إلينا . ولكن ندعه حتى تترشح فيه أنوار المنة، فيكون هو الخارج عن الدنيا بنفسه . ومثل ذلك مثل قوم ركبوا سفينة فقال لهم رئيسها : غدا تهب ريح شديدة ولا ينجيكم منها إلا أن ترموا بعض أمتعتكم! فارموا بها الآن! فلا يسمع أحد قوله . فإذا هبت العواصف كان الكَيِّس[2] من يرمى متاعه بنفسه . كذلك إذا هبت عواصف اليقين، يكون المريد هو الخارج عن الدنيا بنفسه .

---

(١) كانوا يقولون إن الأرض تطوى لمن يشاء الله من عباده . فأبوا العباس يومئ إلى الاعتراض عليهم و يضع المعنى فى نصاب حسن . وراجع ص ٧٦ فقرة ١٨

(٢) الكيس : العاقل الفطن .

٣٠ — إن الولى فى فنائه، لابد أن يبقى معه لطيفة علمية، عليها يترتب التكليف؛ وذلك كما يكون الانسان فى البيت المظلم، فهو عالم بوجوده، وإن كان غير شاهد له.

٣١ — الغنى الشاكر، أفضل من الفقير الصابر؛ لأن الشكر صفة أهل الجنة فى الجنة. والصبر ليس كذلك. والشكر انفتاح القلب لشهود منة الرب.

يقال: شكر، ومقلوبه كشر. من كَشَرت الدابة إذا كشفت عن أسنانها.

٣٢ — القبض على قسمين: قبض له سبب، وقبض لا سبب له؛ فالقبض الذى له سبب، يكون للعموم والخصوص. والقبض الذى لاسبب له، لا يكون إلا لأهل التخصيص.

٣٣ — علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عموم الخلق. والفقيه من انفقأ الحجاب عن عينى قلبه.

٣٤ — قد يكون الولى مشحونا بالعلوم والمعارف. والحقائق لديه مشهودة. فمتى أعطى العبارة، كان ذلك كالإذن من الله تعالى فى الكلام. ويجب أن تفهم أن من أذن له فى التعبير، جلّت فى مسامع الخلق إشاراته. وكلام المأذون له، يخرج وعليه كسوة وطلاوة. وكلام الذى لم يؤذن له، يخرج مكسوف الأنوار.

٣٥ — منذ دخلت على الشيخ أبى الحسن فى القاهرة وهو يُقْرأُ عليه كتاب "المواقف للنقرى"(١). وقال لى: تكلم يابنى بارك الله تعالى فيك. أُعطيتُ لسانا من ذلك الوقت.

(١) هو أبو عمر أحمد بن محمد بن هارون (ابن عات) النفرى الشاطبى الأندلسى، كان من أكابر العلماء الحفاظ، رحل فى طلب العلم، وسمع من خلائق كثيرة فى الشرق والغرب، ولاسيما بالاسكندرية ومصر. وكان يسرد الأحاديث والمتون ظاهرا دون أن يخل بشىء منها، وكان ثقة عدلا مأمونا مرضى الطريقة، سالكا سبيل الصالحين، مع المهابة والوقار والجهاد فى سبيل الله. وله تصانيف جيدة، وكانت وفاته فى وقعة العقاب التى حدثت بين مسلمى الأندلس، وعلى رأسهم الناصر محمد بن يعقوب سلطان الموحدين، وبين ملوك اسبانيا ومن انضم اليهم من ملوك أوربا، سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م). وقد لقبه ابن فرحون بالنفزى. ولعله خطأ فى الطبع. أما صاحب شذرات الذهب فقد لقبه بالنفرى وضبطه بالحروف وقال إنه نسبة إلى نفر، بطن من أحمس. وقد جاريناه على هذه النسبة لبرهانه القائم. وقال السيد مرتضى إنه النفرى وسماه (محمد بن عبد الجبار النفرى) وأنه صاحب المواقف والدعاوى والضلال. والظاهر أنهما متغايران.

٣٦ — ما سمعتموه منى ففهمتموه، فاستودعوه الله يردّه عليكم وقت الحاجة . ومالم تفهموه، فكلوه إلى الله يتولى الله بيانه ، واسعوا فى جلاء مرآة قلوبكم يتضح لكم كل شىء .

٣٧ — اَلْوَرِع من ورّعه الله . وورع المنقطعين نشأ من سوء الظن، وغلبة الوهم . وورع الأبدال والصدّيقين على البينة الواضحة، والبصيرة الفائقة . والله ما رأيت العز إلا فى رفع الهمة عن الخلق .

٣٨ — معرفة الولى أصعب من معرفة الله عز وجل . فإن الله تعالى معروف بكماله وجماله . وحتى متى تعرف مخلوقا مثلك يأكل كما تأكل، ويشرب كما تشرب ؟

٣٩ — إذا ضاق الولى هلك من يؤذيه فى الوقت ، و إذا اتسعت معرفته احتمل أذى الثقلين، ولم يحصل لأحد منهم ضرر بسببه . ولحوم الأولياء مسمومة ولو لم يؤاخذوك . فإياك ثم إياك .

٤٠ — علامة حب الدنيا : خوف المذمة، وحب الثناء. فلو زهد لما خاف، ولا أحب .

٤١ — أبو بكر وعمر خلفاء الرسالة . وعثمان وعلى خلفاء النبوّة .

٤٢ — العامة إن رأوا إنسانا ينسب إلى الولاية، جاء من البرارى والقفار ، أقبلوا عليه بالتعظيم والتكريم . وكم من بَدَل وولى بين أظهرهم فلا يلقون إليه بالا . مع أنه هو الذى يحمل أثقالهم و يدافع الأغيار عنهم . فمثلهم فى ذلك كمثل حمار الوحش، يدخل البلد فيطوف به الناس متعجبين لتخاطيط جلده وحسن صورته . والحُمُر التى بين أظهرهم تحمل أثقالهم إلى مواضع أغراضهم ، وتنقل ترابهم وآلات بنائهم ، لا يلتفتون إليها .

٤٣ — قوت القوم على أربعة أوجه : مباح، وحلال ، وطيب ، وصاف. فالمباح ما كان مستوى الطرفين، ما على أخذه من عقاب، ولا على تركه من ثواب.

والحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحدا من النساء والرجال. والطيب هو ما أخذه العبد بوصف الفناء، إذ لا وصف له مع مولاه . والصافى هو ما عاينه العبد من المنبع . يعنى من عين قدرة الله .

٤٤ — آختلف الناس فى اشتقاق الصوفى ، فمنهم من قال : هو منسوب إلى الصوف، لأنه لباس الصالحين . ومنهم من قال : هو منسوب إلى الصُّفَّة . يعنى صفة مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم التى نسب إليها أهل الصفة . وهو نسب على غير قياس . وأحسن ما قيل فيه : إنه منسوب لفعل الله به . أى صافاه الله فصوفى ، فسمى : الصوفى . قال الشاعر :

تخالف الناس فِى الصوفِى وآختلفوا * وكلهم قال قولا غير معروفِ
ولست أمنح هذا الإسم غيرفتى * صافَى فصوفِى حتى سمى الصوفِى

٤٥ — الصوفى مركب من حروف أربعة : الصاد، والواو، والفاء، والياء . فالصاد : صبره، وصدقه، وصفاؤه . والواو : وجده، وودّه، ووفاؤه . والفاء: فقده، وفقره، وفناؤه . والياء : ياء النسبة . فإذا تكمل فيه ذلك أضيف إلى حضرة مولاه .

المرويُّ من نثره ونظمه

لم أعثر للشيخ أبى العباس على رسائل مستفيضة يتبين منها بلاغة نثره . ولم أجد له ، بعد التحرى والإستقصاء ، غير رسالة موجزة . سأعرضها هنا ، وإن لم تكن مما يصح اتخاذه دليلا على البلاغة فى الترسل . على أن فيما مضى من كلامه الكفاية فى إبانة بلاغته ، على منهج أهل عصره . أما نظمه فهو من النوع الذى يسكن إليه أرباب الطريقة ، ومنتحلو مسالك الحقيقة . وسأعرض منه خير ما روى عنه .

وهــذه رسالتــه المــوجزة :

لمـا حضر إلى الاسكندرية مع شيخه أبى الحسن كتب إلى بعض أصحابه بتونس يقول :

وقد صحبت رأسا من رءوس الصدّيقين ، وأخذت منه سرا لايكون إلا لواحد بعـد واحد . والشرح يطول ، وبه أفتخر ، وإليه أنتسب ؛ وهو أبو الحسن الشاذلى . وكان لا يصحبه أحد إلا فتح الله عليـه فى يومين أو ثلاثة ، فإن لم يجد شيئا بعـد ثلاثة أيام فهو كذاب ، أو يكون صادقا ولكنه أخطأ الطريق . ودليله من كتاب الله عز وجل : ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ . وسمعته يقول : إذا عرضت لك حاجة إلى الله فاقسم عليه بى ! فكنت والله لا أذكره فى شدّة إلا انفرجت ، ولا أمر صعب إلا هان . وأنت يا أخى إذا كنت فى شدّة فاقسم على الله به . وقد نصحتك ، والله يعلم ذلك . والسلام .

وهذا ما اخترته مما عثرت عليه من شعره ، على أنه شعر من طراز لا يشبع نهمة الأديب ، وإن كان مما يرضى عنه المتصوف الأريب .

سئل يوما عن النفس والروح؟ فقال :

إن كنتَ سائلنا عن خالصِ المِنَنِ * وعن تآلفِ ذاتِ النفسِ بالبدنِ
وعن تشبثُّهـا بالحظ مذ أَلِفت * أدرانَها فغدت تشكو من العَطَنِ

وعن بواعِثِهــا بِالطبــعِ مائِــلَةً * تَهوى بِشهوتِها فى ظُلمةِ الشجَنِ
وعن حقيقتِها فِى أصلِ مَعدِنِها * لا ينثني وصــفُها منها إلى وَثَن
وعن تَنَزُّلِهــا فى حُكمِها ولهــا * عِلمٌ يفرقها فى القُبــحِ والحَسَنِ
فاسمع هُدِيتَ علوماً عزَّ سالِكها * على البيانِ ولا يغْرُرْكَ ذو لَسَنِ
قصداً إلى الحق لاتخفى شواهدُها * قامت حقائِقُها بِالأصل والفتَنِ
ياسائِلي عن علومٍ ليس يدرِكُها * ذو فِكرةٍ بِفُهــومٍ لا ولا فِطَنِ
لٰكن بِنــورِ عليٍّ جامِــعٍ حَمِدت * له العقول وكل الخلقِ فى وسَنِ
خُذها إليك بِحق لستَ جاهِلَهُ * والأمرُ مُطَّلِعٌ والحــقُّ قيَّــدَنِى
على الحقِيقةِ خُذ عِلمَ الأُمورِ ولا * تَحجُبك صورتُها فى عالِمِ الوطنِ
فَفِطرةُ النفس سِرٌّ لا يحيط بِهِ * عقــلٌ تقيد بِالأوهامِ والدرنِ
لٰكنهــا برزت بالحكم قائمــةً * حتى تالفهــا السكانُ بالسكَنِ
وكى يقال عَبِيــدٌ قائمون بِمــا * أُلقِى من الامرِ قبل الخلقِ والمحَنِ
والنفسُ بين نُزولٍ فى عَوالِمِها * كآدمٍ ولَــهُ حواءُ فى قَــرَنِ
والرُّوحُ بين تَرَقٍّ فى معارِجِهــا * وهى الموافِق لِلتعريفِ والمِنَنِ
من الحجاب دنت أنوارها فبدت * نــور تنزل بين المــاء والدمن
مثالُها فى العــلى مِرآةُ معــدِنِها * ألطافُها خَفِيت كالسرِّ فى العَلَنِ
زَيتونةٌ زيتهــا نُورٌ لصاحبها * قامت حقائقها بالأصل والفتن
ونار دعوتهــا ماء لشاربهــا * مُدت هِدايتُها فى الكونِ والكُمُنِ
والكل أنت بِمعنًى لا خفاء بِهِ * والنور يحجبه كالمــاءِ فى اللبنِ
والعبد محتجِبٌ فى عِزِ مالِكِهِ * دقت معارِفُه فى الدهرِ والزمنِ

وقال فى الثناء على الشيخ شهاب الدين أحمد بن أبى الحسن الشاذلى :

ســلام على من علا نوره * علينــا ففى مثــله يرغب
كريم مناقبــه جمــة * عــلى الحــق ينى ولا يرهب

ولم لا وخير الورى جدّه * له منه سيف به يضرب
ويحكم ما شاء فى وقته * بنور من الله لا يكذب
هو النور يحيي بأوصافه * وبحر زلال لمن يشرب
هو السر يسعى بامداده * محب على الحق لا يهرب
فشاهده روحا لذاتك إن * أردت الأمور التى تطلب
ترى القوم فى بحره أنجما * ولكن إلى سمته تذهب
يزيد على القوم علما به * يفوق الأنام ولا يسلب
لقد فتح الله فى وقته * قلوبا عن الحق لا تحجب
ويشق به حاسد جاحد * بعيد عن الحق مستصعب
وإنى مقر بتخصيصه * فمن مثله فى الورى يصحب
ومنا عليكم سلام به * نلاقى العداة ولا نغلب

وكتب إلى أخيه أبى عبد الله جمال الدين يحثه على التمسك بالفضائل :

وإذا أردت من السلوك أجله * فالزهد فى الدنيا مع السمت الحسن
واعبد آلهك حيث كنت على الرضا * تحظى بما قد ناله أهل المنن
أهل الولاية والهداية والتقى * هم سادتى فبهم أصول على الزمن
أمحمد لا تنس عيشك منهم * أشهده روحك إذ بها قام البدن
واجعله منك لذاته من وصفه * تجد التحقق فى السريرة والعلن
والله يعلم أنى لك ناصح * لا مدحة أبغى بذاك ولا ثمن
والله حسبي والمؤيد ربنا * وهو المعين على الأمور كما ضمن

وقال ابن عطاء الله : وجدت بخط شيخنا أبى العباس هذه الأبيات :

أَعندكَ مِن لَيلى حديثٌ محررُ * بإيرادِهِ يحيا الرميمُ وينْشَرُ؟
فعهدى بها العهدُ القديمُ وإنَّنِي * على كل حالٍ فى هواها مقصِّرُ
وقد كان عنها الطيفُ قِدماً يزورنى * ولما يزر ما باله يتعذر

فهل بخلت حتى بطيف خيالها * أم اعتل حتى لا يصح التصور؟؟
ومن وجه ليلى طلعةُ الشمس تستضى * وفي الشمس أبصار الورى تتحير
وما احتجبت إلا برفع حجابها * ومن عجب أن الظهور تستّرُ

ومن شعره قوله :

ذاب رسمي وصح صدقُ فنائي * وتجلت للسر شمسُ سمائي
وتنزلتُ فى العوالِم أبدى * ماانطوى فى الصفات بعد صفائي
فصفاتى كالشمس تُبدى سناها * ووجودى كالليل يُخفى سوائى
أنا معنى الوجودِ أصلا وفصلا * مَن رآنى فساجدٌ لبهائى
أنا نور لأهلِهِ مستبينٌ * اشهدونى فقد كشفتُ غطائى

و إلى هنا نمسك القلم قليلا، بعد أن وفينا أبا العباس حقه من نواح عدة، ثم نطلقه لنمضى فى التحدث عن باقى نواحيه . لا سيما عن الناحية التى يستبين فيها فضله، بذكر أعلام تلاميذه ومريديه .

تلاميذه ومريدوه

لم يترك الشيخ أبو العباس شيئا من آثاره القلمية : علمية كانت أو أدبية، أو صوفية، تلك التى كان يصح أن يُرجع إليها على وجه الزمن . فلم يؤلف كتابا، ولم يقيد درسا قط . شأنه فى ذلك شأن شيخه أبى الحسن الشاذلى — كما قيل — وكان يقول : إن علوم هذه الطائفة علوم تحقيق، وعلوم التحقيق لا تحملها عقول عوام الخلق، فكتبى قلوب أصحابى .

وهو و إن لم يترك مؤلفات تخلد ذكره، وتذيع فضله، فقد ترك مريدين، وتلاميذ، وأصحابا، تكفلوا له بخلود الذكر، و إذاعة الفضل .

وقد اخترنا من أوائلهم وخواصهم ثلاثة، كل واحد منهم إذا وزن بأمة رجحها، وهم : البوصيرى، وابن عطاء الله السكندرى، و ياقوت العرشى . فأما :

البوصـــيرى

فهو الشيخ العارف بالله، الأديب البليغ، والشاعر المجيد، والصوفى المتحقق، أشعر علمـاء عصره، وأبلغ فصحاء دهره. شرف الدين، أبو عبـد الله: محمد ابن سعيد بن حماد بن محسن بن عبد الله بن صنهاج بن هلال الصنهاجى.

كان أحد والديه من بوصير، قرية بصعيد مصر، والآخر من دلاص. فركبت النسبة منهما فقيل "الدلاصيرى" ثم نسب إلى بوصير، ولعلها بلد أبيه. فغلبت عليه فاشتهر بالبوصيرى.

وكان مولده بناحية دلاص فى يوم الثلاثاء أول شوال سنة ٦٠٨ هـ (١٢١٢ م). وتلق علومه ومعارفه على طائفـة من علمـاء عصره، كأبى حيان [١]، وأبى الفتح ابن سيد الناس [٢]، والعز بن جماعة [٣]، وغيرهم. ومازال مكبا على الدرس والتلق حتى اتسعت

(١) هو إمام عصره فى اللغة والنحو والقراءات: أثير الدين أبوحيان محمد بن يوسف بن على الغرناطى الأندلسى. ولد سنة ٦٥٤ هـ. وأخذ علومه عن جماعة من علماء بلده ثم حضر إلى الديار المصرية، وأخذ عن شيوخها، واختص ببهاء الدين بن النحاس. وتقدّم فى النحو، واللغة، والتفسير، والحديث، والتاريخ. وطار صيته واشتهر اسمه فى حياة شيوخه، وألف الكتب المعتبرة، تناولها الناس وأكبوا عليها. وأخذ عنه أكابر عصره وفيهم من يفوقه سنا ومكانا. وله شعر حسن. فن مشهوره قوله:

عداى لهم فضـل على ومنـة * فلا أذهب الرحمن عنى الأعاديا
هم بحثـوا عن ذلتى فاجتنبتها * وهم نافسونى فاكتسبت المعاليا

وكانت وفاته بالقاهرة فى ١٨ من صفر سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) ودفن بمقبرة الصوفية.

(٢) هو فتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد (ابن سيد الناس) اليعمرى الاشبيلى الأندلسى المصرى. كان إماما من أكابر الحفاظ، شافعى المذهب. ولد سنة ٦٧١ هـ. وتلق علومه على أكابر مشيخة عصره فى مصر، وذاع صيته واشتهر أمره، وقصده الناس للأخذ عنه والاستفتاء فى مختلف العلوم. وله مؤلفات فى فنون شتى من أشهرها "عيون الأثر" فى سيرة سيد البشر. وله الخط الجميل، والشعر البديع، والنادرة الفذة، والمحاضرة الحسنة. ونثره من الجودة بمكان. وكانت وفاته فى ١١ شعبان سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م). ودفن بالقرافة الصغرى عند ابن أبى جمرة.

(٣) هو عز الدين أبو عمر عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله (ابن جماعة) الكنانى الحموى. ولد بدمشق فى سنة ٦٩٤ هـ. ونشأ فى بيت العلم فأخذ عن والده قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة وغيره. وحضر مع والده إلى مصر، وأخذ عن شيوخها، وولى القضاء بالديار المصرية، وحدّث وأفتى، وصنف، وحج مرارا. قال الذهبى: وكان خيرا صالحا حسن الأخلاق كثير الفضائل. استعفى فى أواخر عمره من القضاء. ثم حج فمات بمكة فى جمادى الآخرة سنة ٧٦٧ هـ (١٣٦٦ م). ودفن بعقبة باب المعلى إلى جانب الفضيل بن عياض بينه وبين أبى القاسم القشيرى.

معارفه، وأتقن العلوم على أنواعها من عقلية ونقلية ، وبرع فى صنوف الآداب، فأجاد صناعة المنثور والمنظوم ، وبذ أقرانه فى فنون الشعر .

ولما ظهرت عليه مخايل النجابة ، واستوت له معانى الإصابة ، عين رأسا على مباشرى الجبايات بالشرقية ،واتخذ بلبيس مقاما له . وكان مقربا من الحكام ذا حظوة عندهم ، يحضر مجالسهم ، ويسمعون شعره ، ويتنقلون بنوادره . وكان يكتب عنهم فى أغراضهم التى تحتاج إلى بلاغة وترسل . وظل فى وظيفته هذه إلى أن رأى من بعض زملائه ما لم يطمئن إليه ، مما لايتفق مع التعفف والأمانة ، فزهدت نفسه فى الوظيفة وتركها غير آسف عليها .

غير أن الله تعالى نظر إليه بعين عنايته ، وأراد به الخير فشمله بكريم رعايته ، ووفقه إلى صحبة الشيخ أبى العباس المرسى ، فلزمه ملازمة صادقة ، وحضر مجالسه ، وأخذ عنه علوم الحقيقة ، وظهرت عليه بركته حتى فاق أهل زمانه ، ورزقه الله من الشهرة وذيوع الذكر وبعد الصيت ، ما لم يصل إليه أحد من أقرانه .

وله الشعر الفائق ، والنثر الرائق ، والاطلاع الواسع ، والعلم النافع . ولو لم يكن له إلا قصائده الثلاث ، فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم ، وهى : الهمزية ، والمضرية ، والبردة ، لكفاه فخرا .

وقد حاول كثير من الأدباء فى عصره مجاراته فى واحدة منها فلم يتهيأ لهم ذلك . ولهذا قال الحافظ ابن حجر الهيتمى (١) : إن الإمام برهان الدين القيراطى (٢) ، مع جلالته

(١) هو شيخ الإسلام حافظ عصره شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على (ابن حجر) الهيتمى الكنانى العسقلانى المصرى . ولد سنة ٧٧٣هـ . وتلق علومه على مشايخ العصر . واشتغل بالتجارة وبرع فيها . وكان أديبا مليح الشعر ، حسن النثر . ثم طلب الحديث فسمع الكثير حتى فاق أقرانه ، وتصدر للدرس والإفادة وقصده الطلاب من مختلف الأمصار . وولاه الأشرف برسباى قضاء القضاة الشافعية بالديار المصرية . وما زال فى هذا المنصب بين مباشرة وعزل إلى أن اختار العزلة فاستعفى وانقطع فى بيته ملازما للاشتغال بالتصنيف . فوضع مؤلفات كثيرة فى علوم متنوعة . وكانت أوقاته مقسمة للطلبة مع كثرة المطالعة والتأليف والتصدى للافتاء . وكان مقتفيا فى سيرته آثار السلف الصالح . وكانت وفاته فى ١٨ من ذى الحجة سنة ٨٥٢هـ (١٤٤٩م) . ودفن بالرميلة .

(٢) هو برهان الدين إبراهيم بن شرف الدين عبدالله بن محمد (القيراطى) كان مولده فى سنة ٧٢٦هـ . لازم علماء عصره وأخذ عنهم علوما شتى حتى برع فى الفنون ، ودرس بأماكن عدة وفاق أقرانه فى الأدب ، =

وتضلعه فى العلوم النقلية والعقلية، وتقدمه على أهل عصره فى العلوم العربية والأدبية، لا سيما علم البلاغة، ونقد الشعر، وإتقان صنعته، وتمييز حلوه من مره، ونهايته من بدايته؛ أراد أن يحاكى الهمزية ففاته الشنب (١). وانقطعت به الحيل عن أن يبلغ من معارضتها أدنى أرب.

وقال الحافظ ابن سيد الناس: البوصيرى أحسن من الجزار (٢) والوراق (٣).

= وأفتن فى النثر والنظم إلى أن اشتهر بالبراعة، وبعد صيته فى البلاغة. وكان أحد أفراد الفضلاء فى عصره بمصر. وله ديوان شعر. ومن أبدع ما قال فى الخال:

كأن خديه ديناران قد وزنا * لحزر الصيرفى الوزن واحتاطا
فشح بعضهما عن وزن صاحبه * فزاده من فتيت المسك قيراطا

والظاهر أنه لقب بالقيراطى لهذا. سافر إلى الحجاز وجاور بمكة، فمات هناك فى ربيع الآخر سنة ٧٨١ هـ (١٣٧٩ م).

(١) ينظر فى هذا إلى قول الشاعر: * لقد حكيت ولكن فاتك الشنب *
والشنب عذوبة الريق ولمعان الأسنان.

(٢) هو جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم (الجزار) المصرى، كان جزارا، وكان ينظم الشعر فيستجاد منه، ثم ترك الجزارة وأخذ فى قول الشعر، فدح الملوك والأمراء، وعاتب الإخوان والأصدقاء، وهجا الخصوم والأعداء. وكان كريما جوادا متلافا لا يكاد يبقى على مال وقع فى يده. وهذه حالة كل أديب حقا. وكانت بينه وبين السراج الوراق مداعبة، فرمد السراج فأهدى إليه الجزار تفاحا وكمثرى، وكتب مع ذلك يقول:

أكافيك عن بعض الذى قد فعلته * لأن لمولانا على حقوقا
بعثت خدودا مع نهود وأعينا * ولا غرو أن يجزى الصديق صديقا
وإن حال منك البعض عما عهدته * فما حال يوما عن ولاك وثوقا
بنفسج تلك العين صار شقائقا * ولؤلؤ ذاك الدمع عاد عقيقا
وكم عاشق يشكو انقطاعك عندما * قطعت عن اللذات منه طريقا
فلا عدمتك العاشقون فطالما * أقمت لأوقات المسرة سوقا

ومن طريف شعره قوله:

سقى الله أكناف الكنافة بالقطر * وجاد عليها سكر دائم الدر
وتبا لأوقات المخلل إنها * تمر بلا نفع وتحسب من عمرى
أهيم غراما كلما ذكر الحمى * وليس الحمى إلا القطارة بالسعر
وأشتاق إن هبت نسيم قطائف السحور سحيرا وهى عاطرة النشر
ولى زوجة إن تشتهى قاهرية * أقول لها ما القاهرية فى مصر

توفى فى شوال سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨١ م)، ودفن بالقرافة.

(٣) هو سراج الدين عمر بن محمد الوراق المصرى. كان من أشهر أدباء مصر فى عهده، وكان شاعرا مكثرا حسن التصرف، بديع الألفاظ، جيد المعانى. توفى سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٦ م).

وما زال موضع إجلال العلماء والأدباء، ملتزما طريق الخير، منتهجا فى التقوى والورع والصلاح السبيل القويم، والصراط المستقيم. إلى أن أتاه أمر الله فتوفى سنة ٥ أو ٦ أو ٦٩٧ هـ . على ما قاله المقريزى وصاحب شذرات الذهب ، ولكن ذهب شيخ الاسلام الحافظ ابن حجر العسقلانى إلى أنه توفى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٥ م) ورأى أن هذا هو الصواب . ودفن فى قبره الذى شيد عليه مسجده المعروف بالاسكندرية بجوار مسجد أبى العباس إلى الآن .

أما مؤلفاته فهى قصائده الثلاث المشهورة ، وهى "الهمزية" وقد تسمى "أم القرى" فى مدح خير الورى ، "والبردة" وقد تسمى "الكواكب الدرّية فى مدح خير البرية" كما قد تسمى "البرءة" و "المضرية" وشهرة هذه القصائد تغنى عن الإطناب فى ذكرها .

وقد أخذ الأدباء والعلماء منذ عصر المؤلف فى شرح هذه القصائد، وتشطيرها، وتخميسها، وتسبيعها، ومجاراتها، ومعارضتها إلى اليوم .

وأشهر من حاول مجاراتها من معاصرينا : محمود سامى باشا البارودى ، وأحمد شوقى بك، رحمهما الله .

وله ديوان شعر ضمنه الكثير من شعره فى فنون شتى . وياحبذا لو طبع هذا الديوان ، فمنه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية .

وقد عثرت على كثير من شعره مفرّقا فى شتى الكتب، فاخترت منه ما أورده هنا :

قال يمدح أبا الحسن الشاذلى وأبا العباس المرسى أستاذه فى التصوّف ، وهى قصيدة تقع فى أكثر من ١٤٠ بيتا، تخيرت منها ما يأتى :

كتبَ المشيبُ بأبيض فى أسودِ * بقضاءِ ما بينى وبين الخُرَّدِ
خجلت عيونُ الحورِ حين وصفتها * وصف المشيبِ وقلن لِى لا تبعدِ
ذهب الشباب وسوف أذهب مثلما * ذهب الشباب وما امرؤ بمخلَّدِ
إن الفناءَ لِكل حى غايةٌ * محتومةٌ إن لم تكن فكأنْ قدِ

قذفت بهِ أيدى النوى مِن حالِقٍ * سامِي المحل إلى الحضيض الأوهدِ
حمل الهوَى جهلا بأثقالِ الهوَى * مستنجدا بعزيمــةٍ لم تُنجِــد
ما إن يزال بمـا تكلف حمــلَه * فى خُطَّتَىْ خسف يروح ويغتدى
غرضـا لِامرٍ لا تَطيش نِبالُه * ومعــرضـا لِعنيـف ومُفَنَّــد
وخليفـة فى الارضِ إلا أنــه * متوعَّدٌ فيهـا وعيــد الهُـدهـدِ (١)
أنفاســه تُحصى عليـهِ وعِلمها * يُفضى إليـهِ غدا له حكم الغـد
أبـدًا تـراه واجــدا أو عادِما * فى حــيرةٍ لُقَطاتُهـا لم تُنْشَــد (٢)
يُمسِى ويُصـبِح مُتهِمـا أو مُنجِدا * لِمعـادِهِ مـع مُتهِــمٍ أو مُنجِـدِ (٣)
متخـوف مِنـه المصـير لِمنزِلٍ * مستوبِلِ المـرعَى وبِيءِ المـورِدِ
ما إن رأى الجانى بهِ أعمـاله * إلا تمـنى أنــه لم يوجــدِ
حسبِي له حب النـبِي وآلِـهِ * عِنـد الإلٰهِ وسـيلةً لم تردد
صـل عليـه الله إن صـلاة مَن * صــلى عليـهِ ذخيرةٌ لم تنفَــدِ
واسمع مدائح آلِ بيتِ المصطفى * مِـنى ودونك جمعهـا فى مُفـرد
صِـنو النبِي أخـو النبِي وزيره * ووليـه فى كل خطب مؤْيِــد (٤)
جـد الإمامِ الشـاذِلِيِّ المنتمِى * شرفا إليــهِ بِسيدٍ عن ســيدِ
أعـنِي ابا الحسنِ الإمامِ المجتـبى * مِن هـاشِم ، والشاذِلِيِّ المـولِدِ

---

(١) يشير بهذا إلى قوله تعالى : ﴿ وتفقد الطير فقال ما لى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين . لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين ﴾ يعنى أن الإنسان فى هذه الحياة واقع تحت حكم الوعيد ، كما كان ذلك الهدهد .

(٢) يريد بالواجد : الغنى الموسر . وبالعادم : الفقير المعسر . فهو على الحالتين فى حيرة لا يدرى كيف يتصرف ، كما أن واجد اللقطة يكون فى حيرة إذا لم ينشدها ، أى إذا لم يناد عليها كحكم الشرع .

(٣) المتهم : من أتى تهامة . والمنجد : من أتى نجدا . والمراد التشبيه .

(٤) الخطب المؤيد : الشديد الوقع .

إن الإمام الشاذليَّ طريقهُ * فى الفضلِ واضحةٌ لعين المهتدى
فانقل ولو قدما على آثارهِ * فإذا فعلت فذاك أخذٌ باليدِ (١)
واسلك طريق محمدٍ بشريعةٍ * وحقيقةٍ ومحمدىَّ المحتِدِ
قد نال غاية ما يروم المنتهى * من ربهِ وله اجتهاد المبتدى
قل للمحاولِ فى الدنو مقامه * ما العبد عند اللهِ كالمتعبِّدِ
والفضل ليس يناله متوسل * بتورعٍ حرجٍ ولا بتزهدِ
إن قال ذاك هو الدواء فقل له * كُحْلُ الصحيح خلافُ كُحْلِ الأرمدِ
يمشى المصرَّف حيث شاء وغيره * يمشى بحكم الحجرِ مشى مقيدِ
مَن كان منك بمنظرٍ وبمسمع * أتحال منه على حديثٍ مُسنَدِ
لكليهما الحسنَى وإن لم يستووا * فى رتبةٍ وقد استووا فى الموعدِ
كل لما شاء الإله ميسرٌ * والناس بين مقربٍ ومسددِ
وإذا تحققت العناية فاسترح * وإذا تحققت العناية فاجهدِ
أفدى عليًا (٢) بالوجود وكلنا * بوجودهِ من كل سوءٍ نفتدى
قطب الزمانِ وغوثه وإمامه * عين الوجودِ لسان سر الموجدِ
ساد الرجال فقصرت عن شأوهِ * هِمَمُ المآربِ للعلىٰ والمنشدِ
فتلق ما يلقِى إليك فنطقه * نطق بروح القدس أىّ مؤيدِ
إما مررت على مكانِ ضريحهِ * وشممت ريح النَّدِّ من تُربٍ ندِ
ورأيت أرضا فى الفلاةِ بخضرةٍ * مخضلة منها بقاع الغرقدِ
والوحش آمنة لديه كأنها * حُشرت إلى حرمٍ بأولِ مسجدِ

---

(١) فذاك أخذ باليد : فهذا هو العهد الذى لا رجوع فيه ولا نقض له .
(٢) على : هو أبو الحسن الشاذلى .

فقل السلام عليك يا بحر الندى الطامي ويا بحر العلوم المزبد

يا وارثا بالفرض علم نبيه * شرفا وبالتعصيب غير مفند
اليوم أحمد من علي وارث * حظى علي من وراثة أحمد (١)
يعزى الإمام إلى الإمام ويعتزى * للبتدى بهداه فضل المقتدى
والمرء في ميزانه أتباعه * فاقدر إذًا فضل النبي محمد
خير الورى صلى عليه الله ما * صدع الأسى قلبا بسجع مغرد
وسرى السرور إلى القلوب فهزها * مسرى النسيم إلى القضيب الأملد
شرفا لمرسية رست آساسها * بعلا أبي العباس فوق الفرقد
اليوم قام فتى علي بعده * كيما يبلغ مرشدا عن مرشد
فكأن يوشع بعد موسى قائم * بطريقه المثلى قيام مؤكد
فليقصد المستمسكون بحبله * دار البقاء من الطريق الأقصد
وإذا عزمت على اتباع سبيله * فاسمع كلام أخي النصيحة ترشد
فنظام أعمال التقى آدابها * فاصحب بها أهل التقى والسؤدد
وتجنب التأويل في أقوال من * صاحبت من أهل السعادة تسعد
قد فرق التأويل بين مقرب * يوم السجود لآدم ومبعد
وحذار أن يثق المريد بنفسه * واحزم فما الإصلاح شأن المفسد
فاصحب أبا العباس أحمد آخذا * يد عارف بهوى النفوس منجد (٢)
فإذا سقطت على الخبير بدائها * فاصبر لمر دوائها وتجلد
ما زال يعطفها على مكروهها (٣) * حتى زكت وصفت صفاء العسجد

---

(١) أحمد : هو أبو العباس المرسي . (٢) المنجد : الحازم المجرب للأمور العارف بحقائقها .
(٣) الضمير في يعطفها : راجع إلى النفوس .

وأجيب داعيها لِرد مشردٍ * مِن أمرِها طوعا وجمع مبددِ
لم تترك التقوى لها مِن عادةٍ * ألفت ولا لِمريضِها مِن عودِ
ولِيمنِ أحمد كيمياء سعادةٍ * صحت فلا نار عليها تعتدى
جعلته لم يرِ لحقيقةِ طالِبا * إلا يمد إليهِ راحة مجتدى
ألفاظه مبذولة بذل الحيا * ومصونة صون العذارى الخُرَّدِ
كل يروح لِشُربِ راحِ علومِهِ * طربا كغصنِ البانةِ المتأودِ
ضمِن الوقارَ لها اعتِدالُ مزاجِها * فشرابها لا ينبغِى لِمعربِدِ
فضحت معارِفُها معارِف غيرها * والزيفُ مفضوح بِنقدِ الجيدِ
كشفت له الأسماء عن أسرارِها * فإذا الوجود لمقلتيهِ بِمرصدِ
وأرته أسباب القضاءِ مُبِينة * لِلمستقيم يعلمها والملحِدِ
قل لِلذين تكلفوا زِى التقى * وتخيروا لِلدرس ألف مجلدِ
لا تحسبوا كحل الجفونِ بِحليةٍ * إن المها(١) لم تكتحِل بالإثمِدِ
مَن أملتِ التقوى عليهِ أنفقت * يده مِن الأكوامِ لا مِن مِزودِ
وأبِيك ما جمع المعالِى وادعى * جمع الألوفِ مِن الحِسابِ على اليدِ
إلا أبو العباسِ أوحد عصرِهِ * أكرِم بِهِ فى عصرِهِ مِن أوحدِ
أفنته فى التوحيدِ همةُ واجِدٍ * شذت مقاصِدها عنِ المتشددِ
ساحت رِجال فى القِفارِ وإنه * ليُسيح فِى الملكوتِ طرفَ مسهدِ
وله سرائر فى العلى خطارةٌ * خطارها ورِكابها لم تُشددِ
والمستقيم أخو الكرامةِ عِنده * لا كلُّ من ركِب الأسود بأسودِ
وأجل حالِ مُعامِلٍ تبعية * أخذت إلى أدبِ المريد بِمقودِ

(١) المها : بقر الوحش ، وهو مشهور بسعة العيون وكحلها . والشعراء يضربون به المثل فى ذلك .

فأتى مِن الطرْقِ القريبِ منالَها * وأتى سِواه مِن الطرِيقِ الأبعدِ
سيفٌ مِن الأنصارِ ماضٍ حدُّه * فاضرِب بِهِ فى النابِتاتِ وهدِّدِ
أثنى عليهِ بِظاهِرٍ وبِباطِنٍ * لِأسرَّ منه بِمغمدٍ ومُجرَّدِ
مِن معشرٍ نصروا النبي وسابقوا * معه الرياح بِكل نَهدٍ أجردِ [(١)]
مِن كل ذِمْرٍ كالصباح جبينُه * دَرِبٍ بخوض المعضلاتِ معوَّدِ [(٢)]
وبِكل أسمرَ أزرقٍ فولاذُه * وبِكل أبيضَ بِالنجيعِ مُورَّدِ
شهِد النهار لِفاضِلٍ بِمسدَّدٍ * مِن رأيِه ولِطاعِنٍ بِمسدَّدِ
وتمخضت ظلم الليالى مِنهم * عن رُكَّعٍ لا يسأمون وسُجَّدِ
خاف العدو مغيبهم لِشهودِهم * والموت يكمن فى الحسامِ المغمَدِ
السابِرو العوراتِ من قتلى العِدى * يوم الحفيظةِ بِالقنا المتقصدِ
والطاعِنو النجلاءَ يُدخل كفه * فى إثرِها الآسِى مكانَ المِرودِ [(٣)]
مستمطِرا بركاتِه مِن راحةٍ * أندى مِن الغيثِ السكوبِ وأجودِ
سل مِن سليلِهم سلوك سبيلِهم * يُرشِدك أحمد لِلطرِيقِ الأحمدِ
فمواهِبُ الرحمنِ بين مصوِّبٍ * مِنها لِراجٍ رحمةً ومُصعِّدِ
يا من أمتُّ له بِحفظِ ذِمامِهِ * وبِحسنِ ظنى فيهِ لِى مستعبِدى
مولاى دونك ما شرحتُ بِوزنِهِ * ورويِهِ قلبَ الكئيبِ الأكمدِ
فاقبل شِهابَ الدينِ عذر فريدةٍ * عذراء تُذرِى بِالعذارى النُّهَّدِ
معسولة ألفاظها مِن كامِلٍ * فابرد حشًا مِن رِيقها بِمبرِّدِ
طلعت مجرة فضلِها بكواكبٍ * دُريةٍ محفوفةٍ بِالأسعُدِ

(١) نهد أجرد : جواد تام الخلق قوى الشد . (٢) الذمر : الرجل الشجاع الماضى فى الأمور . (٣) الآسى : الطبيب البارع

بعثت إليك بها بواعثُ خاطرٍ * متحبِّبٍ لجنابكم متودِّدِ
صادفتُ دراً من صفاتك مُثْمناً * فأعرته مِنى صفات منضدِ
جاءت تسائلك الأمان لخائفٍ * مِن ربقةٍ بذنوبه متوعِّدِ
فاضمن لها دركَ المعادِ ضمانها * بالفوز منك لسامعٍ ولمنشدِ
فإذا ضمنت له فليس بخائفٍ * مِن مُبرقٍ يوماً ولا مِن مُرعِدِ
جاهُ النبي لكل عاصٍ واسعٌ * والفضلُ أجدر باقتراح المجتدى

وقال من قصيدة يشكو بها حاله ، وبعث بها إلى أحد الوزراء :

يأيها المولى الوزير الذى * أيامه طائعة أمرهْ
ومن له منزلة فى العلا * تكل عن أوصافها الفكره
إليك نشكوا حالنا إننا * حاشاك مِن قومٍ أولى عُسره
فى قلةٍ نحن ولكن لنا * عائلة فى غايةِ الكثره
أحدث المولى الحديث الذى * جرى لهم بالخيط والإبره
صاموا مع الناس ولكنهم * كانوا لمن أبصرهم عِبره
إن شربوا فالبئر زيرٌ لهم * ما برحت والشربة الجره
لهم مِن الخبزِ مصلوقة * فى كل يومٍ تشبه النشره
أقول مهما اجتمعوا حولها * تنزهوا فى الماءِ والخضره
وأقبل العيد وما عندهم * قمح ولا خبز ولا فُطره
فارحمهم إن عاينوا كعكة * فى كف طفلٍ أو رأوا تمره
تشخص أبصارهم نحوها * بشهقةٍ تتبعها زفره
كم قائلٍ يا أبتِ منهم * قطعت عنا الخير فى كره

ما صرتَ تأتينا بِفلسٍ ولا * بدِرهم ورِقٍ ولا نَقره
وأنت فى خِدمةِ قومٍ فهل * تخدِمهم يا أبتى سُخره
ويوم زارت أمهم أختها * والأخت فى الغيرة كالضره
وأقبلت تشكو لها حالها * وصبرها مِنى على العِشره
قالت لها : كيف تكون النسا * كذا مع الأزواج يا عره
قومى اطلبى حقكِ مِنه بِلا * تخلُّف مِنكِ ولا فتره
وإن تأبَّى فخذى ذقنه * وانتِفيها شعرة شعره
قالت لها : ما هكذا عادتى * فإن زوجى عِنده ضجره
أخاف إن كلمته كِلمة * طلقنى ! قالت لها : بعره
وهوّنت قدرى فى نفسها * فجاءتِ الزوجة مجتره
فقاتلتنى فتهددتها * فاستقبلت رأسى بآجره
وحقٌّ من حالته هذِهِ * أن ينظر المولى له أمره

وقال يمدح الشيخ أبا العباس المرسى :

أما المحبة فهى بذل نفوسِ * فتنعمى يا مهجتى بالبوسِ
بذل المحب لِمَن أحب دموعه * وطوى حشاه على أحر رسيسِ
صدِّق وقل مَن لم يقم كقيامِهِ * لم ينتفِع مِنه امرؤ بجلوسِ
قبل الإله تقربى بمديحه * وتوجهى لجنابِهِ المحروسِ
رُمت المسيرَ إليهِ أعجزنى السُّرى * وأباحنى مَرآه غير يئوسِ
أكرِم بيومِ الأربعاءِ زيارةً * لك إنه عِندى بألف خميسِ
كل اتصالاتِ السعيدِ سعيدةٌ * بمثابةِ التثليثِ والتسديسِ

شرفا لِشاذلةٍ ومُرسِيةٍ سرت * لهما الرياسة مِن أجل رئيس
ما إن نَسبتُ إليهما شيخيهما * إلا جلوتُهما جلاء عروس

وقبل أن يخرج الأشرف صلاح الدين خليل بن المنصور سيف الدين قلاون إلى أخذ عكا، وذلك فى سنة ٦٩٠ ﻫ . رأى البوصيرى فى منامه قائلا ينشده :

قد أخذ المسلمون عكا * وأشبعوا الكافِرين صَكا
وساق سلطاننا إليهم * خيلا تدك الجبالَ دكا
وأقسم الترك منذ سارت * لا تركوا لِلفرنج ملكا

فأخبر بذلك بعض أصحابه فأشاعوها، وكانت فالا حسنا .

وكانت للبوصيرى حمارة استعارها منه ناظر الشرقية فأعجبته . فأخذها وجهز له ثمنها مائتى درهم، فكتب على لسانها "المملوكة حمارة البوصيرى" :

يا أيها السيد الذى شهدت * أخلاقه لِى بِأنه فاضِل
ما كان ظنى بِيبيعنِى أحدٌ * قط ولكن صاحِبى جاهِل
لو جرسوه على مِن سَفهٍ * لقلت غيظا عليه يستاهل
أقصى مرادِى لو كنتُ فِى بلدِى * أرعى بِها فى جوانِبِ الساحِل
وبعد هذا فما يحل لكم * أخذى لأنى من سيدى حلال

فردها الناظر إليه ولم يأخذ الدراهم منه .

وقال يصف بعض تصرفات كتاب الجبايات ومستخدمى المباشرة بالشرقية :

نقدتُ طوائِفَ المستخدَمينا * فلم أر فِيهم رجلا أمِينا
فقد عاشرتُهم ولبِثتُ فِيهم * مع التجرِيبِ مِن عُمرِى سِنِينا
فكتاب الشمالِ هم جميعا * فلا صحبت شمالهُمُ اليمينا
فكم سرقوا الغِلال وما عرفنا * بِهم فكأنهم سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبِسوا حريرا * ولا شربوا خمور الأندرينا

ولا ربوا مِن المـردانِ مُردًا * كأغصانٍ تمِلن وتحنينا
وقـد طلعت ببعضهمُ ذقونٌ * ولكن بعـد ما حلقوا ذقونا
وأقـلامُ الجماعةِ جائلاتٌ * «كأسيافٍ بأيدى لاعبينا»[1]
وقـد سارقتهم حرفا بحـرف * وكل اسم يخطوا منـه سينا
أمولاى الوزير غفلتَ عما * يتم من اللئامِ الكاتبينا
تنسـكَ معشرٌ منهـم وعُدوا * مِن الزهادِ والمتورعينا
وقِيل : لهم دعاء مستجاب * وقد ملأوا من السُحتِ البطونا
تفقهتِ القضاةُ نخان كلٌّ * أمانتـه وسمـوه الأمينا
وما أخشى على أموالِ مصر * سـوى مِن معشرٍ يتأولونا
يقول المسلمون : لنا حقوق * بهـا ولنحن أولى الآخذينا
وقال القِبط : نحن ملوك مِصر * وإن سِـواهم هم غاصبونا
وحلاتِ اليهودُ بحفظ سبتٍ * لهم مالَ الطـوائفِ أجمعينا
وما ابن قُطيبـةٍ إلا شريك * لهـم فى كل ما يختطفونا
أغار على قرى فاقوس مِنـه * بجورٍ يمنع النـوم الجفـونا
وصـير عينهـا حملا ولكن * لمـنزلِهِ وغلتهـا خزينـا
وأصـبح شـغله تحصيل تبرٍ * وكانت راؤه من قبـل نـونا
وقـدمه الذين لهم وصـول * فتمم نقصـه صِلة اللذينا
وفى دارِ الـوكالةِ أى نهـبٍ * فليتـك لو نهبت الناهبينا
فقام بهـا يهـودى خبيث * يسـوم المسلمين أذًى وهونا
إذا ألقى بهـا موسى عصـاه * تلقفتِ القـوافلَ والسـفينا
وشاهدُهم إذا اتُهموا يؤدى * عن الكل الشهادة واليمينـا

(١) هذا الشطر مستعار من قصيدة لمهلهل بن ربيعة الشاعر الجاهلى المشهور .

قال الصلاح بن شاكر : وهى طويلة إلى الغاية . وقد اختصرت من أبياتها كثيرا ، وله فيهم غير ذلك . وشعره فى غاية الحسن واللطافة ، عذب الألفاظ ، منسجم التركيب .

وقال مداعبا من قصيدة أولها :

أَهْوَى والمَشِيبُ قد حال دونه * والتصابي بعد المَشِيب رُعونه
أبتِ النفسُ أن تُطيعَ وقالت : * إن حبي لا يدخل القِنينه
كيف أعصى الهوى وطينة قلبي * بالهوى قبل آدم معجونه
سلبته الرقاد بيضةُ خِدرٍ * ذاتُ حسنٍ كالدرة المكنونه
سُمتها قبلةً تُسر بها النف * س فقالت : كذا أكون حزينه
قلت : لا بد أن تسيري إلى الد * ار فقالت : عسى أنا مجنونه
قلت : سيري فإنني لكِ خيرٌ * مِن أبٍ راحمٍ وأمٍّ حنونه
أنا نِعم القرين لو كنتِ تبغيـ * ـن حلالا وأنتِ نِعم القرينه
قالت: اضرب عن وصل مثلي صفحا * واضرب الخل أو تصير طحينه
لا أرى أن تمسني يد شيخ * كيف أرضى به لِطشتي مشينه
قلت : إنى كثير مالٍ فقالت : * هبك أنت المبارزُ القارونه
سيدى لا تخف على خروجا * فى عُروضي فقطنتي موزونه
كل بحرٍ إن شئتَ فيهِ اختبرني * لا تكذب فإنني يقطينه

هذا ما رأيت اختياره من شعره .

وإلى هنا ينتهى الحديث عن البوصيرى، ولنأخذ فى ذكر زميله .

وأما :

ابن عطاء الله السكندرى

فهو الشيخ الداعية إلى الله تاج الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الكريم "ابن عطاء الله " الجذامى السكندرى . كان إماما عارفا بفنون المعارف، جامعا لصنوف العلوم، وأنواع الآداب والفهوم، من : نحو، وصرف، و بيان، وأصول، وأدب، وفقه، وتفسير، وحديث . وكان حسن النظر فى مذهبى الشافعى ومالك، كما كان كاتبا حسن الديباجة . وشاعرا جيد الاتجاه نحو المعانى الروحية .

وبعد بحث ونظر وتحقيق صحب الشيخ أبا العباس المرسى وتلقى عنه فنون التصوف، وتخرج عليه فى علوم القوم وآدابهم،و برع فى الوقوف على مبادئهم، وتعرف أسرارهم .

ولنترك ابن عطاء الله يتحدث عن أسباب اتصاله بأبى العباس،وعن ما جريات ذلك . قال :

كنت لأمر أبى العباس من المنكرين، وعليه من المعترضين؛ لا لشىء سمعته منه، ولا لشىء صح نقله عنه . حتى جرت بينى و بين بعض أصحابه مقاولة . وذلك قبل صحبتى إياه . وقلت لرجل منهم : ليس إلا أهل العلم الظاهر، وهؤلاء القوم يدعون أمورا عظيمة وظاهر الشرع يأباها . ثم قلت فى نفسى : دعنى أذهب إلى هذا الرجل وأنظر فى شأنه، فصاحب الحق له أمارات لا تخفى . فأتيت إلى مجلسه فوجدته يتكلم فى الأنفاس التى أمر الشارع بها . فقال : الأول إسلام، والثانى إيمان، والثالث إحسان . وإن شئت قلت : الأول عبادة، والثانى عبودية، والثالث عبودة . و إن شئت قلت : الأول شريعة، والثانى حقيقة، والثالث تحقق . أو نحو هذا . فما زال يقول و إن شئت قلت، و إن شئت قلت، إلى أن بهر عقلى . وعلمت أن الرجل إنما يغترف من فيض بحر إلهى، ومدد ربانى . فأذهب الله ما كان عندى .

قال : ثم أتيت تلك الليلة إلى المنزل فلم أجد فىّ شيئا يقبـل الإجتماع بالأهل على عادتى، ووجدت معـنى غريبا لا أدرى ما هو، فانفردت فى مكان أنظـر إلى السماء، وإلى كواكبها وما خلق الله فيها من عجائب قدرته . فحملنى ذلك على العود إليه مرة أخرى .

قال : فأتيت اليه فاستؤذن لى عليه، فلما دخلت إليه قام قائما وتلقانى ببشاشة وإقبال حتى دهشت خجلا ، واستصغرت نفسى أن أكون أهلا لذلك . فكان أول ما قلت له : ياسيدى! أنا والله أحبك . فقال : أحبك الله كما أحببتنى . ثم شكوت إليه ما أجده من هموم وأحزان . فقال :

أحوال العبد أربع لا خامس لها : النعمة، والبلية، والطاعة، والمعصية . فإن كنت بالنعمة فمقتضى الحق منـك الشكر ، وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منـك الصبر ، وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك شهود منته عليك فيها ، وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك وجود الاستغفار .

فقمت من عنده وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوبا نزعته .

ثم سألنى بعد ذلك بمدة : كيف حالك؟ فقلت : أفتش على الهم فما أجده. فقال :

ليـلى بوجهـك مشرق * وظلامه فى الناسِ سارِى
والناس فى سَدَفِ الظلامِ * ونحن فى ضـوءِ النهـار

الزم! فوالله لئن لزمت لتكونن مفتيا فى المذهبين .

يريد مذهب أهـل الشريعة من أصحـاب العـلوم الظاهرة ، ومذهب أهل الحقيقة من أصحاب علوم الباطن .

وقال يوما سمعت الطلبـة يقولون : من صحب المشايخ لا يجىء منه فى العـلم الظاهر شىء . فشق علىّ أن يفوتنى العـلم، وشق علىّ أن تفوتنى صحبـة الشيخ . فجئت إليه فوجدته يأكل لحما بخل ، فقلت فى نفسى : ليت الشيخ يطعمنى لقمة من يده! فما استتممت الخاطر إلا وقد وضع فى فمى لقمة من يده، ثم قال : نحن

إذا صحبنا تاجرا ما نقول له آترك تجارتك وتعال، أو صاحب صنعة ما نقول له آترك صنعتك وتعال، أو طالب علم ما نقول له آترك طلبك وتعال . ولكن نقرّ كل واحد فيما أقامه الله تعالى فيه، وما قُسم له على أيدينا هو واصل إليه . وقد صحب الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما قال لتاجر آترك تجارتك، ولا لذى صنعة آترك صنعتك، بل أقرّهم على أسبابهم، وأمرهم بتقوى الله فيها .

وقال : دخلت يوما على الشيخ أبى العباس، وفى نفسى ترك الأسباب والتجرّد، وترك الاشتغال بالعلم الظاهر، قائلا : إن الوصول إلى الله لا يكون على هذه الحالة . فقال لى — من غير أن أبدى له شيئا — : صحبنى بقوص إنسان يقال له آبن ناشى[1] — وكان مدرسا بها، ونائب الحكم فيها — فذاق من هذا الطريق شيئا على أيدينا، فقال : يا سيدى ! أترك ما أنا فيه وأتفرغ لصحبتك؟ فقلت له : ليس الشأن ذا ! ولكن امكث فيما أقامك الله، وما قسم لك على أيدينا هو إليك واصل . ثم قال : هكذا شأن الصدّيقين، لا يخرجون من شىء حتى يكون الحق هو الذى يتولى إخراجهم . فخرجت من عنده وقد غسل الله تلك الخواطر من قلبى، وكأنها كانت ثوبا نزعته، ورضيت عن الله فيما أقامنى فيه .

وقال : وقلت لبعض أصحاب الشيخ أبى العباس : أريد لو نظر الشيخ إلىّ بعنايته وجعلنى فى خاطره ! فقال ذلك للشيخ، فلما دخلت إليه قال : لا تطالبوا الشيخ بأن تكونوا فى خاطره، بل طالبوا أنفسكم أن يكون الشيخ فى خاطركم، فعلى مقدار ما يكون عندكم تكونون عنده . ثم قال : أى شىء تريد أن تكون؟ والله ليكونن لك شأن . والله ليكونن لك شأن عظيم ... فكان من فضل الله سبحانه وتعالى ما لا ننكره .

---

(١) هو الشيخ تقى الدين إبراهيم بن أحمد بن ناشى القوصى . كان من فقهاء الشافعية، نائبا فى القضاء بقوص، وكان يلقى دروسه على طلبة المدرسة العزية بساحل قوص . ولما ذهب الشيخ أبو العباس المرسى إلى قوص فى إحدى رحلاته . صحبه آبن ناشى وأخذ عنه مبادى السلوك وطريق القوم، وكانت وفاته بها سنة ٦٩٢ ﻫ (١٢٩٣ م) .

وقال : أخبرنى سيدنا جمال الدين ولد الشيخ قال : قلت للشيخ : هم يريدون أن يصدروا ابن عطاء الله فى الفقه ! فقال الشيخ : هم يصدرونه فى الفقه ، وأنا أصدره فى التصوف . ثم دخلت عليه فقال لى : إذا عوفى الفقيه ناصر الدين [1] يجلسك فى موضع جدك ، ويجلس الفقيه من ناحية وأنا من ناحية ، وتتكلم إن شاء الله فى العلمين ! فكان ما أخبر به .

قلت : وقد صدق الشيخ أبو العباس فى نبوءاته عن ابن عطاء الله . فلقد صار أعجوبة زمانه فى علوم التصوف وآداب السلوك ، وأنطقه الله بالحكم الغوالى ورفع شانه فى عيون العلماء والأمراء وأرباب الحكم ، حتى لقد جلس بين يديه شيخ الإسلام الإمام تقى الدين السبكى [2] ، وتخرج عليه فيمن تخرج فى علوم أهل الطريقة . ويروى عنه أنه كان صاحب إشارات وأقوال ، ومصدر كرامات وأحوال ، ذا قدم راسخة فى الوعظ والإرشاد . وقد استوطن القاهرة واتخذ له كرسيا بالجامع الأزهر يتكلم عليه ، فى جموع من العلماء والفقهاء والطلبة والعامة . ولما كان معروفا بسعة العلم واستقامة الطريقة ، كان لوعظه أثر صالح فى القلوب ، وكان فى دروسه هذه يروح الأرواح ، ويهذب النفوس ، ويشرح كلام أهل الحقائق وأرباب الطرائق ، بآثار السلف وفنون المعارف ، حتى لقد طلبه السلطان لاچين لسماع كلامه .

---

(١) هو العلامة الشيخ ناصر الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن منصور (ابن المنير) الجذامى الاسكندرانى المالكى قاضى الاسكندرية وفاضلها المشهور . كان من أبرع أهل زمانه فى الفقه والأصول والنظر ، وكان أديبا بليغا ، وشاعرا مجيدا ، ولغويا فائقا . له التصانيف البليغة ، والمؤلفات الجيدة فى مختلف الفنون . وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام يقول : الديار المصرية تفتخر برجلين فى طرفيها : ابن دقيق العيد بقوص ، وابن المنير بالاسكندرية . وكان مولده فى سنة ٦٢٠ ﻫ . وتوفى بالاسكندرية فى أول ربيع الأول سنة ٦٨٣ ﻫ (١٢٨٤ م) .

(٢) هو علامة زمانه الشيخ تقى الدين أبو الحسن على بن عبد الكافى الأنصارى السبكى . انتهت إليه رياسة العلوم فى عهده ، وهو من طبقة ابن دقيق العيد وأمثاله ، وكان متبحرا فى العلوم على اختلاف أنواعها . وله المؤلفات القيمة فى شتى المعارف ، وهو بقية أهل الاجتهاد . كان مولده بسبك من أعمال المنوفية فى سنة ٦٨٣ ﻫ . وتوفى بجزيرة الفيل على شاطئ النيل فى ٤ جمادى الآخرة سنة ٧٥٦ ﻫ . (١٣٥٥ م) .

قال ابن عطاء الله : لما اجتمعت بالسلطان الملك المنصور لاجين (١) رحمه الله . قلت له : يجب عليكم الشكر لله ، فإن الله سبحانه قد قرن دولتكم بالرخاء ، وانشرحت قلوب الرعايا بكم . والرخاء أمر لا يستطيع الملوك تكسبه ولا استجلابه ، كما يتكسبون العدل والجود والعطاء . قال : وما هو الشكر ؟ قلت : الشكر على ثلاثة أقسام : شكر باللسان ، وشكر بالأركان ، وشكر بالجنان . فشكر اللسان : التحدث بالنعمة ، قال الله تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ . وشكر الأركان : العمل بطاعة الله . قال سبحانه وتعالى : ﴿ إِعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ﴾ . وشكر الجنان : الإعتراف بأن كل نعمة فمن الله . فقال : وما الذى يصير به الشاكر شاكرا ؟ قلت : إذا كان ذا علم فبالتبيين والإرشاد ، و إذا كان ذا غنى فبالبذل والإيثار للعباد ، و إذا كان ذا جاه فبإظهار العدل فيهم ودفع الأضرار والأنكاد . فسر بذلك غاية السرور .

ولابن عطاء الله المصنفات النافعة ، والكلمات الرائعة ، والحكم البالغة ، والشعر الفائق ، والنثر الرائق ، ومعظم ذلك فى الأخلاق والتصوف وآداب السلوك ومبادئ الحقائق . فمن مصنفاته البديعة :

"لطائف المنن" فى "مناقب أبى العباس المرسى وشيخه أبى الحسن" الشاذلى . و "التنوير فى إسقاط التدبير" و "المرقى إلى القدس الأبقى" و "الحكم العطائية" وهى حكم منثورة فى تقويم النفوس و إصلاح الأرواح . ولما صنفها عرضها على شيخه أبى العباس ، فلما تأملها قال له : يابنى ! لقد أتيت فى هذه الكراسة بمقاصد الأحياء و زيادة . ولذلك تعشقها أرباب الذوق لما رق من معانيها ، وراق من عباراتها ، و بسطوا القول فيها وأكثروا من شروحها . و "تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس" و "مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح" و "التحفة" ولعلها هى

---

(١) هو السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين بن عبد الله المنصورى . كان من مماليك السلطان قلاون ومقدميهم . تولى ملك مصر فى سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) . وكان شهما هماما دينا عادلا محبا للعلماء مقربا للفضلاء . قتل سنة ٦٩٨ هـ (١٢٩٨ م) . وبقى العرش بعده خاليا ٤١ يوما .

" تحفة الخلان فى شرح نصيحة الإخوان " و"حزب النور وتمام السرور". وأكثر هذه الكتب مطبوع متداول، و بعضها لا يزال مخطوطا .

وأما شعره فهو من الطراز الحسن الذى يروق أهل الطريق . وقد اخترت منه ما يأتى :

قال يمدح شيخه أبا العباس المرسى :

قِفْ بالديارِ فقد بدا مغناها (١) * فلمن تسير وما المرادُ سِواها

وأرِح قلاصَك قد بلغتَ المنحنَى (٢) * فلطالما جُهِدت ودام سُراها

ولطالما قطعت مهامِهَ واغتدت * أرساغُها مخضوبةً بِدِماها

تُمسِى وتُصبِح لا تمل من السُّرى * حتى تشكت أينَها ووجاها (٣)

رِفقا بِها يا أيها الحادِى ولا * تغرِى بِها فالشوق قد أغراها

يكفِى الذِى لاقته مِن ألمِ السرى * وكفى بِها وجدا بِها وكفاها

أو ما تراها كيف تُجرِى دمعها * حتى تبل مِن الدموع سراها

يحدو بِها نحو الديارِ غرامُها * و يقودُها نحو الحبيبِ هواها

فازت بِأن وصلت إِلى أحبابِها * فتمايلت والشوق حشو حَشاها

حنت وأنت إِذ رأت وادِى النقا * واستبشرت مِنه بِنيل مناها

فسرورها كسرورِ أيامٍ غدا * فِيها "أبو العباسِ" شمس ضحاها

تاهت بِأحمد إِذ أتاها رحمة * وغدت بِه بين الورى تتباهى

وتشرفت أوقاتها بِمجيئِهِ * وتحلتِ الايامُ مِنه حِلاها

وغدا يسدد أمر دِينِ محمدٍ * فأزاح عنها كُربة وجلاها

(١) مغناها : مواضع نزول أهلها .
(٢) القلاص : النوق الشواب .
(٣) الأين : الإعياء . والوجى : الحفا وهو رقة خف البعير .

إن تلقه تلق إماما راسخا * حبرا منيبا صادقا أواها
قد كملت فيه الفضائل كلها * وتجمعت فيه على أخراها
كم سنة ماتت فأحيا رسمها * كم بدعة عقدت لحل عراها
كم من أتاه والمعاصى دأبه * قد قيدته نفسه بهواها
فازال عنه ما به فتقشعت * عنه سحائب ظلمة بدجاها
كم من قلوب قد أميتت بالهوى * أحيا بها من بعد ما أحياها (١)
أحييت علم القوم فى زمن به * قل المساعد فانجلت ظلماها (٢)
وأتيت غوثا للانام وقبل ذا * ركبت محارم واستبيح حماها
وغدوت ترفل فى ثياب معارف * ولبست من حلل التقى أسناها
ما زلت حتى طاوعتك نفوسنا * فأزلت عنها جهلها وعماها
من بعد ما ظفرت بها وتحكمت * فينا وزلت عن سبيل هداها
ذللتها حتى أتت منقادة * من بعد ما جمحت وعز شفاها
فلذاك أضحى ودها لك خالصا * بشرى لها فى ودها بشراها
فغدوت أعلى همها فى جهرها * وكذاك أيضا أنت فى نجواها
ما زلتمو تهدون أمة أحمد * فبكم تكمل برها وتقاها
قد كان قدما بالبرية حيرة * حتى أتى قطب الورى فهداها
بالشاذلى تقشعت ظلماتها * وتنورت بمجيئه آفاقها
كنز التقى علم الهدى بحر الندى * قطب البرية غوثها ملجاها

---

(١) هذا المعنى من أبرع المعانى وأجلها . فهو يقول إنه أحيا قلوبا فأحييت هذه القلوب قلوبا أخرى كان الهوى قد أماتها .

(٢) علم القوم : هو علم التصوف ومبادئ السلوك .

من كان إن خطب ألَمَّ حماها * وزوى بها عن صَرفِهِ ووقاها
كهف تلوذ به البرية كلها * ترجوه فى لأوائها ورخاها (١)
حتى توفاه الإله فيالها * مِن نَعيةٍ قد حازها وحواها
وخلفته فى حالِهِ ومقامِهِ * بالإرثِ منه فارتقيت عُلاها
الله أبقى للبريةِ أحمدًا * وأقامه فيها لكى يرعاها
إن الذين تعرضوا لِفخارِهِ * طُبِقت جفونهم على أقذاها
إن تنكروا الآياتِ وهى ظواهِرٌ * فلقد تبدت واستنار سناها
هم يعلمون بأنه قطب الورى * لكنه غَلَبَ النفوسَ شقاها
أو ما ترى قوم النبى محمدٍ * جحدوا ولجوا فى الجحودِ سِفاها
مع علمِهم أن النبى محمدا * كان الرسولَ أتى لها بهداها
فأنام غيظهمو المليك ولم يزل * فى حالةٍ يرضى بها مولاها
تهدى إليك المكرمات بأسرها * وتنال من رتبِ العلى أقصاها

وكتب إلى بعض إخوانه هذه الأبيات :

أيا صاح هذا الركب قد سار مسرعا * ونحن قعود ما الذى أنت صانع
أترضى بأن تبقى المخلف بعدهم * صريعَ الأمانى والغرامُ ينازع
وهذا لسان الكونِ ينطق جهرةً * بأن جميع الكائناتِ قواطع (٢)
وأن لا يرى وجه السبيلِ سوى امرئٍ * رمى بالسُّوَى لم تختدعه المطامع
ومن أبصر الأشياء والحق قبلها * فغيب مصنوعا بمن هو صانع

---

(١) اللأواء : الشدة .
(٢) شبه الكائنات بقواطع الطير التى تفارق أوكارها فى أقاصى البلاد إلى أدانيها طلبا للرزق ثم تعود إلى تلك الأوكار . فالكائنات جاءت من العدم إلى الوجود وستعود من الوجود إلى العدم .

بواده أنوارٍ لمن كان ذاهبا * وتحقيق أسرارٍ لمن هو راجع
فقم وانظر الأكوان والنور عمها * ففجر التداني نحوك اليوم طالع
وكن عبده والق القياد لحكمه * وإياك تدبيرا فما هو نافع
أتحكم تدبيرا وغيرك حاكم * أأنت لأحكام الإله تنازع؟؟
فمحو إراداتٍ وكل مشيئةٍ * هو الغرض الأقصى فهل أنت سامع؟؟
كذلك سار الأولون فأدركوا * على إثرهم فليسر من هو تابع
على نفسه فليبك من كان طالبا * وما لمست ممن يحب لوامع
على نفسه فليبك من كان باكيا * أيذهب وقت وهو باللهو ضائع؟؟

وقال فى قيمة العتب، وهو معنى حسن :

لا تشتغل بالعتب يوما للورى * فيضيع وقتك والزمان قصير
وعلام تعتبهم وأنت مصدق * إن الأمور جرى بها المقدور
هم لم يوفوا للإله بحقه * أتريد توفيةً وأنت حقير
فاعرف حقوقهم عليك وقم بها * واستوف منك لهم وأنت صبور
وإذا فعلت فأشهدن بعين من * هو بالخفايا عالمٌ وخبير

وقال فى رفع الهمة عن الخلق، وأنه شيمة أهل الحق :

بكرت تلوم على زمانٍ أجحفا * فصدفت عنها علها أن تصدفا
لا تكثرى عتبا لدهرك إنه * ما إن يطالَبُ بالوفاء ولا الصفا
ماضرنى أن كنت فيه خاملا * فالبدر بدر إن بدا أو إن خفا (١)

---

(١) قوله : أو إن خفا : لعله يريد أن يقول خفى . ضد ظهر . وإلا فمعنى خفا : ظهر . وهذا لا يقصده . فقد استعمل الممدود مكان المقصور . ومثل ذلك قوله : يخفو . فيما سيأتى .

الله يعلم أنني ذو همة * تأبى الدنايا عفة وتظرفا
لم لا أصون عن الورى ديباجتي * وأريهم عز الملوك وأشرفا
أأريهم أنى الفقير إليهم * وجميعهم لا يستطيع تصرفا؟
أم كيف أسأل رزقه من خلقه * هذا لعمري إن فعلت هو الجفا
شكوى الضعيف إلى ضعيف مثله * عجز أقام بحامليه على شفا
فاسترزق الله الذى إحسانه * عم البرية منة وتلطفا
والجأ إليه تجده فيما ترتجى * لا تعد عن أبوابه متحرفا

وقال فى العجز أمام القدرة :

وكلى محتاج وأنت لك الغنى * ومثلي من يخطى ومثلك من يعفو
وأنت الذى أبدى الوداد تكرما * ومثلك من يرعى ومثلي من يجفو
وما طاب عيش لم تكن فيه واصلا * ولم يصف لا والله أنى له يصفو
عزمت على أن أترك الكون كله * وأقفو سبيل الحب والمجتبي يقفو
شهودكم يحلو الحجاب لأنه * إذا حقق التحقيق صار هو الكشف
وما أحسن الأحباب فى كل حالة * فلله ما يبدو ولله ما يخفو
وإن الأولى لم يشهدوك بمشهد * قلوبهم عن نيل سر الهوى غلف
وأنت الذى أظهرت ثم ظهرت فى * جميع المبادى مثلما شهد العرف
ظهرت لكل الكون فالكون مظهر * وفيه له أيضا كما جاءت الصحف
فأى فؤاد عن ودادك ينثنى * وأية عين بعد قربك لن تغفو
وأية نفس لم يملها هواكم * على حبكم طرا نفوس الورى وقف

وفيما أوردناه كفاية فى عرض نماذج من شعره .

وما زال قائما على الدعوة إلى الله ، مذيعا مبادئه التى تلقاها عن شيخه أبى العباس فى التمسك بأهداب الفضائل ، إلى أن اختاره الله لجواره . فتوفى بالمدرسة

المنصورية بالقاهرة فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٩ هـ (١٣٠٩م) . كما ذكره السبكى وأبو المحاسن والسيوطى والعماد الحنبلى . وليس سنة ٧٠٧ هـ . كما ذكره على باشا مبارك . ودفن بالقرافة الصغرى وقبره معروف بها .

قال الأستاذ محمد رمزى بك فى تعليقاته على النجوم الزاهرة : إن قبر ابن عطاء الله السكندرى لا يزال موجودا بجبانة سيدى على أبى الوفاء[1]، الكائنة تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الامام الليث . وهـذا القبر يقع على بعد ٣٠٠ متر فى الجنوب الشرقى لجامع سيدى على أبى الوفاء، وبجوار القبر من الغرب قبة تحتها قبر كمال الدين محمد بن عبد الواحد (بن الهمام)[2]، وبالقرب منها فى الشمال الغربى قبر محمد بن سيد الناس، وقبة تحتها قبر عبد الله بن أبى جمرة[3] .

قلت : وفى الاسكندرية مسجد معروف بمسجد سيدى تاج الدين بن عطاء الله السكندرى، وهو بها مشهور، ولم يدفن فيه .

وهـذا ابن عطاء الله .

وأما :

---

(١) هو أبو الحسن على أبو الوفا بن محمد . ينتهى نسب هـذا البيت إلى الأدارسة سلاطين المغرب الأقصى أبناء الحسن بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ولد أبو الحسن هذا بالقاهرة سنة ٧٥٩ هـ . فنشأ على التقوى والصلاح والعلم الغزير . وكان شديد اليقظة، حاد الذهن، متفوقا فى مذهب مالك . وكان أبوه العارف بالله محمد بن محمد وفا معجبا به حتى لقد صدّره للكلام على الناس ولم يبلغ العشرين من عمره . وكان بديع الكلام حسن الشعر، فقيها عارفا بالعلوم . وله مؤلفات فى التفسير والفقه والتصوّف . وأصل بيتهم بالاسكندرية وانتقلوا إلى القاهرة وسكنوا الروضة . وكانت وفاته بالروضة فى ذى الحجة سنة ٨٠٧ هـ (١٤٠٥م) .

(٢) هو العلامة كمال الدين محمد بن عبد الواحد بن عبد الحميد بن مسعود (ابن الهمام) السيواسى الاسكندرى . كان مولده سنة ٧٩٠ هـ . تقريبا . وكان من أكابر علماء الحنفية علامة محققا جدليا نظارا مع التفوّق على أقرانه فى أنواع العلوم من الفقه، والأصول، والنحو، والصرف، والمعانى، والبيان، والتصوّف، والموسيقى . وكان يقول : لا أقلد فى المعقولات أحدا . وكان له نصيب وافر مما لأرباب الأحوال المقربين إلى الله . تولى التدريس فى عدّة مدارس، وله مؤلفات فى غاية الاجادة والإتقان . وكانت وفاته فى يوم الجمعة ٧ رمضان سنة ٨٦١ هـ (١٤٥٨م) .

(٣) هو العالم البارع الناسك أبو محمد عبدالله بن أبى جمرة المالكى المقرئ الصالح . كان من القوالين بالحق، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر . مات فى ذى القعدة سنة ٦٩٥ هـ (١٢٩٥م) .

ياقــوت العــرشى

فهو الشيخ الصالح العارف بالله ياقوت بن عبد الله الحبشى المعروف "بالعرشى" كان مولده ببلاد الحبشــة . ثم اختطف و بيع وتناقلتــه الأيدى إلى أن حضر إلى الديار المصرية . فلمــا سمع بالشيخ أبى العباس سافر إلى الاسكندرية وتقدم إليه وقام على خدمته وصحبه ولازمه، وأخذ عنه وانتفع به . وكان من أجل تلاميذه ومريديه، وظهرت عليــه بركته . حتى صار من أهــل العرفان ، وممن يضربون فى التصوف وآداب السلوك بسهم وافر، مع الزهد وشدّة العبادة والنسك والورع. وقد بلغ من حب الشيخ أبى العبــاس له وثقتــه به أن زوجه بكريمتــه " بهجة " و بالجملة فقد كان مرضى الطريقة، صاحب أحوال و إشارات . وقد روى ابن كثير أنه كان يقول : أنا أعلم الخلق بلا إله إلا الله .

قال ابن أيبك[1] : كان شيخا صالحا مباركا ذا هيبة ووقار ... وكان يقصد للدعاء والتبرك، ولم يخلف بناحيته بعده مثله . ومناقبه مشهورة بين أصحاب الطريقة الشاذلية .

قلت : وحدثنى الأســتاذ الشيخ بشير الشندى أمين مكتبة بلدية الاسكندرية أنه قرأ أن الشيخ ياقوتا اعتكف فى أحد المساجد ثلاثة أيام، ثم خرج لزيارة شيخه أبى العباس فبينا هو فى طريقه عثر على درهم . ومع أنه كان فى شدّة الجوع، فقد رأى أن يشترى به زبيبا يقدّمه إلى الشيخ إيثارا له على نفسه . فلما دخل إليه وسلم عليه وضع الزبيب بين يديه ، ثم هم بالانصراف فقال له الشــيخ : مهلا . وبعد قليل حضر رجل من أهالى الاسكندرية وعلى يده صحفة فيها رقاق و بعض الطيور. فقال له الشيخ : كل يا ياقوت فهذا فتوحك . قال الشيخ ياقوت : فأكلت حتى امتلأت، وعند قيامى قال لى الشيخ: إحمل الزبيب فإننا قوم لا تحل لنا اللُّقَطة .

(١) هو شهاب الدين أبو الحسين أحمد بن أيبك بن عبدالله الحسامى الدمياطى . كان مولده بدمياط سنة ٧٠٠هـ وكان من أكابر الحفاظ حتى كان ينعت بمحدث مصر، وكان واسع المعارف حسن الخط دقيقه . وله مؤلفات فى الحديث ورجاله وفى الوفيات . توفى بالقاهرة بالطاعون فى رمضان سنة ٧٤٩هـ (١٣٤٨م) .

وكان له ابنتان تزوج إحداهما الشيخ شمس الدين اللبان، فلما توفيت جزع عليها زوجها وأوصى بأن يدفن عند قدميها يوم وفاته، إجلالا لمقام والدها واحتراما لمنزلته . وتزوج الأخرى أحد تلاميذه ومريديه الشيخ حسن الحبار[١] المتصدر بعده للوعظ والإرشاد .

توفى الشيخ ياقوت بالاسكندرية عن ثمانين سنة ؛ وذلك فى مساء ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣٢ م) على ما ذكره السيوطى ، وهو الأرجح ، لا فى سنة ٧٠٧ هـ ، على ما ذكره على باشا مبارك . ودفن فى قبره الذى شيد عليه مسجده المعروف به فى الاسكندرية بجوار مسجد أبى العباس، ومسجد البوصيرى، وقبره مقصود بالزيارة والتبرك . وله مولد فى كل سنة ليلة واحدة يتم إحياؤها فى شهر رمضان .

✣

ومن صحب الشيخ أبا العباس ولازمه الشيخ نجم الدين عبد الله الأصفهانى ، صاحب شيخه أبى الحسن الشاذلى، وكان من خيرة الأصحاب .

✣

وقد تخرج على يدى أبى العباس فى علم التصوف ، وأدب السلوك ، ومبادئ الطريقة، ومكارم الأخلاق الإسلامية، خلق كثيرون، وتلاميذ لايكادون يحصرون.

---

(١) هو الشيخ الواعظ المرشد أبو على الحسن بن عبد الله الحبار . كان من أهل التقوى والصلاح على قدم أهل الطريق . تصدر للوعظ والارشاد بعد الشيخ ياقوت، وكان من خاصة أصحابه وأقرب المريدين اليه حتى لقد زوجه ابنته ، وكان عظيم الاقبال عليه . وانتفع به الناس . مات فى ربيع الآخر سنة ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) .

مسجد أبى العباس القديم

فى أوّل عهده :

كان قبر الشيخ أبى العباس المرسى، وما زال معروفا فى مكانه الذى دفن فيه. وكان هذا القبر قائما بذاته فى جبانة قديمة تعرف بجبانة سيدى المرسى عند الميناء الشرقى بالاسكندرية .

ولم يكن عليه بناء إلى أن كانت سنة ٧٠٦ ﻫ (١٣٠٧ م) فزاره الشيخ زين الدين ابن القطان كبير تجار الاسكندرية، وبنى عليه ضريحا وقبة، وأنشأ له مسجدا حسنا، وجعل له منارة مربعة الشكل، ثم حبس عليه بعض أملاكه، وأقام له إماما وخطيبا، ورتب له خدما وقواما . وكان القبر تحت القبة التى كانت على يمين الداخل من الباب الغربى لهذا المسجد . وكان يقصد بالزيارة من العامة والخاصة، لا سيما من المغاربة الذين يفدون على مصر بقصد الحج .

وفى سنة ٨٨٢ ﻫ (١٤٧٧ م) كان قد أهمل وتشعث . فأعاد بناءه الأمير قجماس الإسحاقى الظاهرى (١) أيام ولايته على الاسكندرية، وقبل أن يلى نيابة الديار الشامية، وبنى لنفسه فيه قبرا دفن فيه بعد وفاته .

وفى سنة ١٠٠٥ ﻫ (١٥٩٦ م) جدد بناءه الشيخ أبو العباس السنفى الخزرجى (٢)، ودفن فى قبر له فيه .

وفى سنة ١١٨٩ ﻫ (١٧٧٥ م) وفد الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله المغربى على الاسكندرية وزار ضريح الشيخ أبى العباس فرأى ضيقه وتشعث بنائه، فجدد منه الجزء الذى كان يلى القبلة، كما جدّد المقصورة والقبة، ووسعه بعض الشىء .

---

(١) تأتى ترجمته بعد مع المدفونين بالجامع .   (٢) تأتى ترجمته بعد .

وفى سنة ١٢٨٠ ﻫ (١٨٦٣ م) كانت حالة المسجد قد أصبحت غير مرضية ، إذ أصابه التهدم والهجران حتى كادت تبطل منه الشعائر، فقام أحمد بيك الدخاخنى، شيخ طائفة البنائين بالاسكندرية ، فلم شعثه وجدّده ووقف عليه أوقافا، وأعدّه لإقامة الشعائر، فقامت على خير ما يرجى .

ثم أخذ نظار وقفه فى توسعة مساحته شيئا فشيئا من أرض الجبانة التى تجاوره، ومن بعض المنازل التابعة لوقفه ، وجعلت ميضأته فيما هدم من تلك المنازل حتى صار كما قال على باشا مبارك : إلى ما هو عليه من السعة والمتانة والمنظر الحسن، وشعائره مقامة على الوجه الأتم، ويصرف عليه من طرف ديوان الأوقاف بالاسكندرية، كما أن ريعه ومرتباته مضبوطة به . وله خدمة يقتسمون وظائف الخدمة، كما يقتسمون النذور، على شروط مسجلة فى ديوان الأوقاف. وكل سنة يعمل له مولد ثمانية أيام، بعد مولد النبى صلى الله عليه وسلم، وليلة فى نصف شهر رمضان.

فى آخر عهده :

ما برح مسجد أبى العباس المرسى على حالته التى وصفناها إلى أن شاءت إرادة الله العلية أن يعم مصر الخير، وأن تشملها عوامل البر، فتبوأ عرشها المفدى حضرة ساكن الجنان المغفور له الملك المصلح العظيم "فؤاد الأول" أسبغ الله عليه شآبيب الرحمة والرضوان ، وتوجهت عنايته السامية إلى أن تكون الاسكندرية بحقٍّ، عروس البحر الأبيض المتوسط ، وأن تكون فى حاضرها مظهرا متصل الجلال بعظمتها الماضية . فأمر رحمه الله بانشاء ميدان فسيح الجنبات يطلق عليه "ميدان المساجد" على أن يكون اتساعه ٤٣٢٠٠ متر . وأن يكون لمسجد أبى العباس الحظ الوافر من الانشاء والتجديد ، حتى يتناسب مع عهد جلالته السعيد . وأن ينتظم هذا الميدان الكبير : الخمسة المساجد المحيطة به، وأجلها مسجد أبى العباس . وأهمها مسجد البوصيرى، ومسجد ياقوت العرشى .

وقد بادرت وزارة الأوقاف إلى إنفاذ هـذا الأمر الكريم ، واستجابت لهذه الرغبة الملكية العالية للراحل العظيم . فوضعت مشروعا قيما شاملا لتجديد المسجد ، بل لإنشائه وتشييده .

وقد راعت فى مشروعها ، أن يكون طراز العمارة فى البناء على الطراز العربى الجميـل الذى كان معروفا فى عصر الدولة الأيوبية التى وفد الشيخ أبو العباس من الأندلس إلى مصر فى عهدها . فجاء آية من آيات الفن فى الفخامة والجلال .

كما راعت أن يكون الضريح فى مكانه الذى ما برح فيـه، مع اتساع رقعـة المسجد، بالأخذ من الأرض المحيطة به . وبذلك يصبح من أكبر مساجد الشرق، ويصير حرما جامعا بالعـاصمة الثانية للمملكة المصرية ، ويكون فى فخامته ، وجلال عمارته، وبهاء تشييده، مضرب المثل فى العظمة والجمال بين مساجد الإسلام .

وقد توج المشروع بالموافقة سـنة ١٩٢٧ المغفور له الملك " فؤاد الأول " أسكنه الله فسيح جناته .

أدوار مشـــروع التجـــديد :

لمـا كان المشروع الذى أعدته وزارة الأوقاف يقتضى نزع ملكية الأرض اللازمة لتوسـعة الموقع الجديد للجـامع . كان من الضرورى انتظار فترة من الزمن لاتمام ذلك الاجراء . ولهذا تأخر وضع أسس البنـاء إلى أواخر سنة ١٩٢٨ ، على أنه قد تم وضعها فى أوائل سنة ١٩٢٩

وممـا أوجب التأخير أنه قد تبين أثناء الأخذ فى إنفاذ المشروع، وجوب إجراء شىء من التعديل فى الرسـوم " التصميات " المقررة له . فمن ذلك تعلية السقف إلى ١٧,٥٠ مترا ، بدلا من ١٣,٥٠ مترا لتتساوى النسب المعمارية بأجزاء الجامع المختلفة . ومنها وجوب تقوية الأكتاد الداخلية للجامع لتتمكن من حمل هذه التعلية الاضافية . وقد اقتضت هذه الزيادة فى الأعمال استنفاد وقت آخر .

وفوق ذلك فقد كان للأزمة المالية التى بدأت فى سنة ١٩٣٠ أثر ملحوظ فى تحديد المبالغ التى كانت مخصصة سنويا لاتمام المشروع . وقد بلغ مجموعها : ٦٨٥٥٤ جنيها مصريا فى مدى خمسة أعوام ، من سنة ١٩٢٩ إلى سنة ١٩٣٣ ثم حدثت بعد ذلك فترة ركود .

ولما كانت سنة ١٩٣٦ انبعثت الهمة ، واتجهت الرغبة الملكية العالية إلى إتمام هذا المشروع الجليل . فمدّت وزارة المالية يد المعونة إلى وزارة الأوقاف بمبلغ ٥٥٠٠٠ جنيه لانفاقه فى هذا السبيل .

وكان من قضاء الله الذى لا يرد أن انتقل إلى رحمته ورضوانه الملك المصلح العظيم " فؤاد الأول " وذلك فى يوم ٢٨ أبريل سنة ١٩٣٦ أسكنه الله فسيح جناته ، ورحيب رحماته .

غير أن عناية الله بمصر ، ورعايته لكنانته ، قد طلعت عليها من مطالع السعود فتبوأ حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح المتوكل على الله " فاروق الأول " أيده الله بنصره . فكان من يمن الطالع أن شمل جلالته هذا المشروع برعايته ، وأمدّه بكريم عطفه وعنايته ، فسارت الأعمال بتوجيهاته السامية فى خُطًى واسعة ، وتوجهت نحو التمام بهمة فائقة ، حتى بلغت فيه الغاية من الكمال .

وكان مما لاحظه جلالته ، حفظه الله ، أن ليس بالجامع مكان يقيم فيه السيدات شعائر الدين ، فأمر أعزه الله ، أن يخصص لهن مكان بجانب الجامع يؤدين فيه الصلاة ، و يوفين فيه الفرائض الدينية . فقامت الوزارة بانفاذ هذا الأمر الكريم ، واتخذت لهنّ مكانا رحبا ، وأعدّته إعدادا حسنا ، وأفردت لهذا المكان بابا خاصا ، حتى لا يختلطن بالرجال أثناء الدخول أو الخروج ، أو أثناء إقامة الصلاة . وكانت ملاحظة جلالته موضع إعجاب الأمة وعظيم ارتياحها .

وقد مضت الوزارة فى إتمام البناء والتشييد حتى جاء الجامع تحفة من أجل تحف الفن المعمارى ، وآية من آيات الفخامة والجلال ، بين المساجد الإسلامية الكبرى فى الشرق أجمع .

الجامــع الجــديد

وهذا وصف جامع أبى العباس الجديد كما شاهدته :

الظاهر أن رسوم الجامع "وتصمياته" وضعت ونفـذت بحذافيرها ، فجاءت مساحته ٣٠٠٠ متر، بعد أن كانت فى المسجد القديم ١٦٠٠ متراً . وهو مثمن الشكل، متساوى الأضلاع من الداخل . وكل ضلع من أضلاعه طوله ٢٢ مترا . وله مدخلان عامان : أحدهما شرقى مطل على الميدان ، وعن يمينه إلى الجنوب جامع البوصيرى . وثانيهما بحرى يطل على الميدان ، وقبالته الشارع المعتمد إنشاؤه وامتداده إلى قصر رأس التين العامر . وقد جعـل على كل مدخل مصراعان عظيمان ، كسيا بالبرونز على الطراز العربى الرائع .

أما حيطان الجامع فهى فى ارتفاع ٢٣ مترا ، وقد كسيت من الخارج بالأحجار الصناعيـة ، كما كسى جزؤها العلوى من الداخل بالحجـر الصناعى . وغطى جزؤها السفلى بالرخام الصناعى «الموزايكو» بارتفاع ٥,٦٠ أمتار . وجعلت السلالم الخارجية أمام المدخلين العامين من الجرانيت المصرى . وهى توصـل إلى دهليزين رحبين فرشت أرضهما بالرخام الملون على أشكال هندسية بالطراز العربى الجميل ، كما فرشت أرض الجامع بالرخام الأبيض .

وفى أربعة جوانب من تمين الجامع ثمـان دعائم كبيرة مربعة الشكل ، فى كل جانب منها دعامتان ، صنعت جميعها من الخرسانة المسلحة ، وكسيت بالحجر الصناعى . وبإزائها ستة عشر عمودا نحتت من حجر الجرانيت ، استوردت من محاجر بالينو بإيطاليا . وكل عمود منها قطعة واحدة . قاعدته وتاجه . فى شكل مثمن ، ارتفاعه ٨,٦٠ أمتار وقطره ٨٥ سنتيمترا .

وأما سقف الجامع من الداخل فهو فى ارتفاع ١٧,٥٠ مترا . وقد طلى بدهان ذى زخارف وأشكال عربية فائقة الحسن . يتوسطه قبة « شخشيخة » مثمنة الأضلاع قائمة على ثمانية أعمدة من الجرانيت الإيطالى، وارتفاعها عن مستوى أرض الجامع ٢٤ مترا، وقطرها ١٤,٥٠ مترا ، ومحيطها ٥١ مترا . وفى كل جانب من جوانبها الثمانية ثلاث كوى، نوافذ، محشوة بالزجاج الملون على رسوم وأشكال عربية جميلة . وهى ملتحمة بالرصاص ، وقد صنع إطارها من الألمنيوم. فتى وقعت الشمس عليها انبعثت منها أضواء إلى صحن الجامع متنوعة الألوان .

يحيط بهذه القبة « الشخشيخة » أربع قباب ، ارتفاعها عن أرض الجامع ٢٢ مترا ، وقطر كل قبة منها خمسة أمتار . ولكل قبة سقفان : أحدهما داخلى، جعل مفرغا على أشكال عربية جميلة تسترعى النظر . وثانيهما خارجى مرتفع فوق الداخلى بما مقداره ١١ مترا . وقطر دائرته ٧,٥ أمتار . وإحدى هذه القباب ، وهى الغربية، تعلو ضريح أبى العباس ولديه . والبحرية منها ، تعلو ضريح الذين سترد أسماؤهم بعد . وهم المدفونون بالجامع .

وقد صنعت أبواب الجامع ، ونوافذه، وكذلك المنبر، من خشب « التيك » والليمون، والجوز، والعزيزى . بتاسيق وحلّى دقيقة الصنع ، رائعة الوضع . كما ركب فى نوافذ الجامع وملحقاته الزجاج الانجليزى السميك .

المحـــراب :

وطبيعى أن يقع المحراب فى الضلع القبلى للجامع . وهـذا الضلع تعلوه المئذنة الناهضة من خلف المحراب .

وهيئة المحراب مما تنشرح له الصدور، وتهفو نحوه القلوب، وتلفت إليه الأنظار، ففى كل من جانبيه عمودان صغيران نحتا من الجرانيت المصرى . طول كل عمود منها

ثلاثة أمتار . وفوق رأس كل عمودين كتب فى مربع بالقلم الكوفى المتداخل : "محمد" أربع مرات . كما كتب فى الزاويتين العلويتين من المحراب، فى مربعين عن اليمين وعن اليسار " لا إله إلا الله محمد رسول الله " . وكتب بين هذين المربعين فى رأس المحراب بالخط الكوفى : " فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا " كما كتب فى نصف الدائرة قبالة وجه الامام " فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ " .

المنـــبر :

وفى الجانب الغربى من المحراب، أى إلى يساره، قام المنبر .

وقد صنع المنبر فى أبدع وأجمل ما تصنع عليه المنابر فى أجل المساجد قدرا . فقد اتخذت أضلاعه من خشب عزيزى، وصنعت حشواته من خشب الجوز التركى، وحلى "بالأويمه" وطعم بالآبنوس والعاج، وكل ذلك مُجَمَّع فى شكل عربى بديع، كما حليت أضلاعه و"قناناته" بأشكال عربية من الخشب "الماهوجنا" وغلفت الحشوات المجمّعة من الداخل بألواح "أبلكاج" زان، وألف الحاجز "درابزين" من مربعات ومثلثات بحشو خرط ميمونى من خشب الجوز التركى . وجعلت حشواته فى شكل حشوات المنبر .

ويرى الناظر فى أعلى المنبر قبة لطيفة الشكل، بأسفلها مقرنصات وكرانيش، وحولها شرفات من خشب "الماهوجنا" وكذلك الجزء العلوى منه . وبأسفل القبة، خلف ظهر الخطيب، حشوة سادة من خشب الجوز التركى، يعلوها إطار . وزاويتاها العلويتان محلاتان " بالأويمة " وبأسفل الإطار عمودان صغيران .

أما مراقى المنبر، وعددها بعد المدخل، فهى سبع درجات، تنتهى إلى مقعد الخطيب . وقد صنعت من خشب الزان : قائمة وقاعدة . وكذلك جعلت أنخاذ السلم من الداخل، غير أنها صنعت بطريقة النقر واللسان .

وأما ارتفاعه فهو ٦,٣٥ أمتار، إلى ذروة الهلال القائم فى أعلاه .

وأما امتداده فهو ٣,٧٢ أمتار . وعرضه ٨٨ سنتيمترا .

وقد كتبت بأعلى بابه ، بخط الثلث المذهب بالذهب الفرنساوى من عيار ٢٢ قيراطا ، هذه الآية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ وعلى بابيه : إلى اليسار " الله أكبر " وإلى اليمين " ولله الحمد " كما كتب على بابى المقدم : فى الجانب الأيسر " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ " وفى الجانب الأيمن :

"عمل فى عصر ملك مصر المعظم فاروق الأول سنة ١٣٦١ هجرية"

وقد دهن المنبر جميعه " بالأستر " .

منصة السورة :

وكذلك صنعت منصة السورة مما صنع منه المنبر، وعلى طرازه ، قوائمها وحشوها ودهانها .

المئذنة أو المنارة :

قلنا إن المئذنة قامت على الضلع القبلى للجامع خلف المحراب .

وهى عربية الطراز ، أيوبية الرسم ، إرتفاعها عن سطح الأرض ٧٣ مترا ، وارتفاعها عن سطح الجامع ٥٠,٨٠ مترا، وهى مؤلفة من أربعة أدوار، أو «حطة» فارتفاع الدور الأول ١٨,٢٠ مترا، وهو مربع الشكل . وارتفاع الدور الثانى أربعة أمتار ، وهو مثمن الشكل . وارتفاع الدور الثالث ١٤,٩٠ مترا، وهو ذو ١٦ ضلعا . وارتفاع الدور الرابع ٢,٣٥ متر ، وهو مستدير . وارتفاع العنق ٤,٣٠ أمتار . وارتفاع الرأس « طموشة » ٢,٦٥ متر . وقد كسى هذا الرأس بالنحاس البرونز . ويعلوه هلال من النحاس ارتفاعه ٤,٤٠ أمتار . وركبت بين شعبتيه سارية مانعة للصواعق ، يمتد منها سلك الى الجهاز المثبت تحت جذع المئذنة .

المصلى الملحق بالجامع :

يقع هـذا المصلى بالجانب الغربى للجامع ، وله ثلاثة مداخل عليها أبواب : أحدها شرقى ينتهى إلى داخل الجامع . والثانى ، وهو المدخل الخاص إلى الجهة البحرية ، والثالث إلى الجهـة القبلية ، و ينتهى إلى دو رة المياه . وطوله ١١ مترا فى عرض خمسة أمتار . و به محراب حسن الوضع والشكل مكسو بالحجر الصناعى وله ثلاث نوافذ : إحداها إلى الجهـة الغربية ، واثنتـان إلى الجهـة البحرية . وبأعلاه فى متوسط سطحه قبـة صغيرة " شخشيخة " بها ٢٢ كوة لإنبعاث الضوء منها إلى الداخل . والمصلى يتسع لثمانين مصليا .

مصـــلى السـيدات :

لـما زار حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك **"فاروق الأول"** حفظه الله . جامع أبى العباس فى إحدى زوراته الكريمة ، رأى أن ليس للسيدات مكان للصلاة ، فأمر ، أعزه الله ، بأن ينشأ لهن مكان خاص يقمن فيه بأداء شعائرهن الدينية ، على وجه يكفل لهن أداءها دون أن يختلطن بالرجال . فصدعت وزارة الأوقاف بهذا الأمر الكريم . و بادرت بإنشاء هذا المصلى .

وموقعـه فى الجانب الغربى فوق دورة الميـاه ، خارج الجامع . وجعـل له مدخل خاص يصعد إليه فى سـلم مؤلف من ٤٠ درجة . وطول المصلى ١٥ متر فى عرض خمسـة أمتار . وبه محراب جميـل يستوقف النظر . وفيـه نافذة كبيرة مربعة الشكل تطل على صحن الجامع من ارتفاع خمسة أمتار ، وقد غطيت هـذه النافذة « بمشربيـة » مشبكة . صنعت من خشب الزان والعـزيزى على الطراز العربى المعـروف . وهى فى حالة لا يستطيع معها من فى داخل الجامع أن يرى من يصلى فى هـذا المصلى بحال . على أنه فى استطاعة من بداخله أن يستمع

إلى خطابة الخطيب وقراءة القارئ ، وأن يتتبع الصلاة خلف الإمام ، بكل راحة واطمئنان ، وتحجب واكتنان .

دورة المياه :

ودورة المياه، أو مكان الوضوء . واقعة فى الجانب الغربى من الجامع . وطولها ١٣ مترا فى عرض خمسة أمتار . وفى وسطها محل الوضوء، وطوله ٩ أمتار، وهو مستطيل، وفى جانبيه ٢٨ صُنبورا يتوضأ منها ، وهو مغلف بالقيشانى الأبيض، ويمتد حوله حاجز " طُرفية " من الرخام يكون تحت قدمى المتوضئ عند الوضوء، ويحجز الماء المنصب من الصنابير ذاهبا إلى مجراه . وقد فرشت أرض الدورة جميعها بالرخام .

وإلى الجهة الغربية منها ثلاث نوافذ صنعت على الطراز العربى، وحشيت بالزجاج الانجليزى السميك، كغيرها من نوافذ الجامع أجمع .

وإلى جانبها الأيمن مكان صفت به خمسة مراحيض، يتلوها غرفة لخزن أدوات الفراشين . وفى الحائط المقابل لها ركب صنبوران لغسل الأيدى والأرجل . وفى الأسفل بنى حاجز "طُرفية " من الرخام يمنع سيح الماء ، ويقف الغاسل عليه .

السبيل :

أنشئ هذا السبيل فى ظاهر الحائط الجنوبى للجامع ، وهو خلف المحراب إلى غربى جذع المئذنة . وقد أعدّ على الطراز العربى المعروف بفخامة شكله وجمال منظره .

وفى الجامع بعد هذا حجرتان صغيرتان صالحتان للارتفاق بهما .

* * *

هذا وصف الجامع كما رأيته وشاهدته . وقد علمت أن مبلغ ما أنفق فى تشييده وبنائه ، وبذل فى تجديده وإنشائه — وذلك على وجه التقريب : ١٣٨٠٠٠ جنيه . ولا شك فى أنه مبلغ لا يقاس بنتائجه العظيمة التى تستريح إليها القلوب وتقر بها العيون ، وليس لما قرت به العين ثمن .

* * *

وحيث بلغنا إلى هذه الغاية من الحديث عن المسجد الجامع ، والكلام عما حواه فى داخله وخارجه ، فمن الحق أن نعود مرة أخرى إلى تجاوز مصراعه للحديث عن ساكنيه ، والتكلم عن قاطنيه ، من المدفونين فى الضريح الشمالى ، والتعريف بهم ، ليتم البحث ويكمل الحديث . ولكى يخرج المطالع لهذه الرسالة من جميع فصولها وقد ألم إلماما صادقا بكل ما اشتمل عليه هذا الجامع العظيم . لاسيما والمدفونون به من خيرة العلماء ، وصفوة الفضلاء ، وخلاصة الصالحين . وناهيك بضريح يضم رفات كل من : "ابن أبى شامة" و "ابن الحاجب" و "الفاكهانى" و "ابن اللبان" و "الأمير بجماس" و "الخزرجى" .

المدفونون بالجامع

يوجد تحت ساحة الجامع ضريحان :

أحدهما فى الجانب الغربى، ويشتمل على رفات الشيخ أبى العباس وولديه : أحمد أبى العباس ، ومحمد جمال الدين . وقد شيدت عليه منصة بالحجر الصناعى "الموزايكو" تعلو على وجه الأرض بما يوازى ٨٠ سنتيمترا، وبها مرقدان : أحدهما وهو الذى يقابل وجه الداخل إليه ، مرقد أبى العباس . والثانى وهو الى يساره، مرقد ولديه . وفوق هذا الضريح من صحن الجامع ، ركبت المقصورة المصنوعة من النحاس البرونز، على الرسم المعروف، تعلو هذه المقصورة، فوق سطح الجامع، القبة الغربية، من القباب الأربع .

وثانيهما فى الجانب البحرى، وقد بنيت عليه منصتان متقابلتان ، إلى يمين الداخل ويساره ، وبينهما ممر فى عرض يوازى مترا واحدا ، ينتهى الى نافذة بحرية مشبكة بالقضبان المكسوة بالبرونز . والمنصتان تعلوان على سطح الأرض بما يوازى ٨٠ سنتيمترا . وفوق هذا الضريح من صحن الجامع ، مكان المقصورة التى ستكون شبيهة بمقصورة أبى العباس، تعلوها فوق سطح الجامع، القبة البحرية، من القباب الأربع .

وإذا دخلت إلى الجامع من بابه البحرى رأيت ضريح أبى العباس وولديه إلى يمينك ، ورأيت الضريح الثانى إلى يسارك .

وإليك أسوق الحديث عن ساكنى هذا الضريح . وسأقدم منهم بالتعريف من قدمه الزمن ، فأقول :

أما الأول فهو :

ابن أبي شامـــة

لم أعثر لابن أبى شامة هذا على ترجمة فيما رجعت إليه من مصادر، على كثرتها. ولم أجد من الحديث عنه إلا هذه الشذرات التى أوردها هنا :

قال أبو المظفر المعروف بسبط ابن الجوزى [١] : قدمت القاهرة، وسافرت إلى الاسكندرية فى هذه السنة — يعنى سنة ٦٤١ هـ — فوجدتها كما قال الله تعالى : ﴿ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾، معمورة بالعلماء، مغمورة بالأولياء الذين هم فى الدنيا شامة : كالشيخ محمد القبارى، والشاطبى [٢]، وابن أبى شامة .

وقال ابن خلكان — فى حديثه عن ابن الحاجب — وتوفى بها — الاسكندرية — ضاحى نهار الخميس السادس والعشرين من شوال سنة ٦٤٦ هـ، ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبى شامة .

وروى ابن عطاء الله السكندرى : عن الشيخ أبى العباس المرسى قال : رأيت ليلة كأنى فى سماء الدنيا، وإذا برجل أسمر اللون، قصير الطول، كبير اللحية، فقال : قل : اللهم اغفر لأمة محمد . اللهم ارحم أمة محمد . اللهم استر أمة محمد . اللهم اجبر أمة محمد . هـذا دعاء الخضر . من قاله كل يوم كتب من الأبدال . فقيل : هذا الشيخ ابن أبى شامة . فلما انتبهت وأتيت إلى الشيخ أبى الحسن جلست ولم أخبره بشىء . فقال : اللهم اغفر لأمة محمد — الدعاء — من قاله كل يوم كتب من الأبدال .

---

(١) هو العلامة المؤرخ الواعظ الشهير شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى البغـدادى الحنفى سبط الشيخ أبى الفرج بن الجوزى . كان من أكابر العلماء، وأفاضل الوعاظ . وله مؤلفات قيمة منها تفسير القرآن فى عدة مجلدات، وشرح الجامع الكبير، وكتاب عظيم فى التاريخ اسمه "مرآة الزمان" وله غير ذلك مما يطول استقصاؤه . توفى بدمشق مساء الثلاثاء ٢٠ من ذى الحجة سنة ٦٥٤ هـ (١٢٥٧ م) .

(٢) هو الشيخ الزاهد العابد المتأله أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى الاسكندرى . كان من أكابر المشهورين بالعبادة والمجاهدة، ومن المعروفين بالتقوى والصلاح . توفى بالاسكندرية، عن بضع وثمانين سنة، فى سنة ٦٧٢ هـ (١٢٧٣ م) .

وقد ذكر اسمه فى بعض الكتب محرفا بخاء " ابن أبى أسامة " وهو خطأ كما ترى .

هذا ما عثرت عليه من شأنه . ومنه يعلم أنه : الشيخ الصالح ابن أبى شامة . وأنه كان موجودا فى سنة ٦٤١ هـ . وأنه كان أسمر اللون ، قصير الطول ، كبير اللحية . وأنه كان من الأبدال — فى إصطلاح الصوفية — وأنه لما مات دفن بالمقبرة خارج باب البحر من الاسكندرية ، وهى المقبرة التى عرفت فيما بعد بجبانة سيدى أبى العباس . ولا شك أن وفاته كانت فى الفترة بين سنة ٦٤١ هـ . وسنة ٦٤٦ هـ . التى توفى فيها ابن الحاجب .

وقبر ابن أبى شامة الآن داخل جامع أبى العباس الجديد .

فهذا ابن أبى شامة .

وأما الثانى فهو :

ابن الحاجب

الإمام العلامة أبو عمرو جمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر بن يونس الدويني المصري . كان والده عمر بن أبي بكر جنديا من الأكراد . وكان حاجبا للأمير عز الدين موسك الصلاحي[(١)] الكردي . ومن هنا قيل لولده "ابن الحاجب" .

كان مولده بإسنا من الصعيد الأعلى سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٥م) على ماذكره ابن خلكان[(٢)]، والإدفوي[(٣)] . وذكر ابن فرحون[(٤)] أنه ولد سنة ٥٩٠ هـ . والأول أرجح . فقد يقع التحريف بين السبعين والتسعين من أقلام النساخ الأقدمين . وإذا علمت أن الجلال السيوطي نقل أنه مات عن خمس وثمانين سنة ، رأيت أن الأول، على رجحانه، فيه نظر .

---

(١) هو الأمير عز الدين موسك بن جكو الكردي الصلاحي . وهو ابن خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وكان من أكابر الأمراء الأيوبية . مجاهدا في سبيل الله ، خيرا ، يحفظ كتاب الله ويكثر من تلاوته ، ويحب العلماء ، ويقرب أهل الصلاح ويبرهم . وهو الذي أنشأ القنطرة التي كانت على الخليج بالقاهرة والتي كانت تسمى بقنطرة الموسكي . وإليه ينسب شارع الموسكي الشهير بالقاهرة . توفي بدمشق في ٢٨ من شعبان سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) .

(٢) هو قاضي القضاة شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم الاربلي (ابن خلكان) . صاحب "وفيات الأعيان" . ولد سنة ٦٠٠ هـ . وتفقه ودرس وتلقى علومه ومعارفه على مشيخة عصره ولقي العلماء ، وصحب أكابر الفضلاء ، وسكن مصر وناب في القضاء بها . ثم ولي قضاء الشام عشر سنين . ثم عزل وحضر إلى مصر . ثم عاد إلى قضاء الشام . وكان سريا نبيلا ، ذكيا أريبا ، أديبا بليغا ، وشاعرا مجيدا ، وكاتبا محسنا . وكان عارفا بأيام الناس وتواريخ الأمم وأحداث الأزمان . توفي في رجب سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢م) .

(٣) هو كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الادفوي . كان من أفاضل الأدباء ، وأكابر الشعراء . له المؤلفات الحسان ، ومنها "الطالع السعيد في تاريخ علماء الصعيد" و "الإمتاع في أحكام السماع" وغيرهما . توفي بالقاهرة في صفر سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧ م) ، كما قال عبد الحي بن العماد الحنبلي في شذرات الذهب ، ودفن بمقابر الصوفية . وقد جاوز التسعين .

(٤) هو برهان الدين أبو الوفاء إبراهيم بن علي (ابن فرحون) اليعمري المدني . ولد بالمدينة المشرفة ونشأ بها ، وبرع في مذهب الامام مالك ، وتولى القضاء بالمدينة ، وهو صاحب "الديباج المذهب" . توفي بالمدينة في ذي الحجة سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٧ م) . ودفن بالبقيع ، عن نيف وتسعين سنة .

تلق أبو عمرو مبادئ القراءة والكتابة والخط والحساب وحفظ القرآن الكريم على مشيخة بلده . ثم انتقل وهو صغير إلى القاهرة، فأجاد حفظ القرآن ، وأتقن فن القراءات السبع . وأخذ قسطا وافرا من الفقه ، وبرع فى الأصول وعلوم العربية ، وأتقنها غاية الإتقان . وكان الأغلب عليه النحو ، وعلم العربية ، وفقه الأصول . ولتوقد قريحته ، ودقة ملاحظته؟ خالف جمهور النحاة فى مواضع ، وأورد عليهم إشكالات وإلزامات ، تبعد الإجابة عنها . وقد وصفه كثير من العلماء وأهل الفضل ، وأثنوا عليه بما هو أهله .

قال أبو شامة [١] : كان ابن الحاجب ركنا من أركان الدين فى العلم والعمل ، بارعا فى العلوم الأصولية ، وتحقيق علم العربية ، متقنا لمذهب مالك بن أنس ، وكان ثقة حجة متواضعا محتملا للأذى .

وقال ابن مسدى [٢] : كان علامة زمانه ، رئيس أقرانه . إستخرج ما كمن من درر الفهم ، ومزج نحو الألفاظ بنحو المعانى ، وأسس قواعد تلك المبانى ، وتفقه على مذهب مالك . وكان علم اهتداء فى تلك المسالك ... وهو فى كل ذلك على حال عداله ، وفى منصب جلاله .

وقال الذهبي : كان من أذكياء العالم .

وقال الإدفوى : كان صحيح الذهن ، قوى الفهم ، حاد القريحة . وكان رحمه الله من المحسنين الصالحين المتقين .

---

(١) هو العلامة شمس الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل (أبو شامة) المقدسى الدمشقى . كان مولده بدمشق سنة ٥٩٦ هـ . وكان من أكابر العلماء ، وأفاضل الفهماء . ذا فنون متعددة ، ومعارف متنوعة . وله التآليف الجيدة فى كل فن . وقد اشتهر بكتابه "الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية" وغيره من الكتب القيمة . وتولى مشيخة القراء فى عدة مدارس بالشام ومصر . وتوفى بدمشق فى ١٩ رمضان سنة ٦٦٥ هـ (١٢٦٧ م) . ودفن بمقبرة باب الفراديس أو باب كيسان .

(٢) هو الحافظ أبو بكر محمد بن يوسف (ابن مسدى) المهلبى الأزدى الغرناطى الأندلسى . كان علامة حافظا ذا رحلة واسعة فى طلب العلم ، ودراية شائعة فى كل فن . جاور بمكة فشاع عنه التشيع وقتل غيلة بها فى شوال سنة ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) .

وقال السيوطى : كان فقيها مناظرا، مفتيا مبرزا فى عدة علوم، متبحرا ثقة، دينا، ورعا، متواضعا، مطرحا للتكلف .

أما شيوخه الذين أخذ عنهم فهم كثيرون : يخطئهم الإحصاء . وكذلك الآخذون عنه .

ولما ذهب إلى دمشق فى سنة ٦١٧ هـ . احتفى بها علماؤها وأهلوها، ودعى إلى إلقاء دروسه بجامعها، وجلس للإقراء فى زاوية المالكية، وأكب العلماء والأدباء على الأخذ عنه، وتبارى الفضلاء وأذكياء الطلاب فى الانتفاع بفضله. وعند ما وقعت مسألة الشيخ عز الدين بن عبد السلام . كان هو الذى سعى فى أمره، وأيده فى قوله حتى اعتقل معه.(١) ثم عاد إلى القاهرة هو والشيخ عز الدين فى سنة ٦٣٨ هـ. وأقام بها، وتصدر بالمدرسة الفاضلية،(٢) ناشرا للعلم مذيعا للعرفان . والناس ملازمون للاشتغال عليه والأخذ عنه .

تحدث ابن خلكان عنه فقال : كان من أحسن خلق الله ذهنا . جاءنى مرارا بسبب أداء شهادات، وسألته عن مواضع فى العربية مشكلة، فأجاب بسكون كثير وتثبت تام . ومن جملة ماسألته عنه، مسألة اعتراض الشرط على الشرط فى قولهم: إن أكلت ، إن شربت ، فأنت طالق . لم تعين تقديم الشرب على الأكل بسبب

(١) وكان السبب فى اعتقالها أن الملك الصالح إسماعيل الأيوبى صاحب دمشق تنازل عن قلعة الشقيف، وكانت قلعة حصينة جدا، لصاحب صيدا الفرنجى . وذلك فى سنة ٦٣٨ هـ أيام الحروب الصليبية . فلم يرق ذلك فى أعينهما وأنكراه عليه كل الإنكار حتى كادت تكون فتنة . فعزلها عما كانا يتوليانه من الأعمال وحبسهما مدة ثم أطلقهما، فحضرا إلى مصر، وكان لها شأن عظيم فى أحداث السياسة المصرية .

(٢) هذه المدرسة كانت أول مدرسة بنيت بالقاهرة، وكانت بدرب ملوخيا، الذى عرف بدرب القزازين، بجوار المشهد الحسينى . أنشأها القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى رئيس ديوان الإنشاء فى الدولة الأيوبية بمصر وصاحب الرأى الأعلى عند صلاح الدين ومدبر سياسة ملكه الواسع . وكان صلاح الدين يقول : مافتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها برأى الفاضل وحسن تدبيره . وكان بهذه المدرسة مكتبة عظيمة بلغت مجلداتها أكثر من مائة ألف . وكان بها مصحف بالخط الكوفى ابتاعه القاضى الفاضل بمبلغ كبير من المال . وقد زعموا أنه مصحف عثمان . وكانت وفاة القاضى الفاضل فى سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ م) .

وقوع الطلاق، حتى لو أكلت ثم شربت لا تطلق ؟ ... وسألته عن بيت أبى الطيب المتنبى[١] . وهو قوله :

لقد تصبرت حتى لات مصطبر * فالآن أقحم حتى لات مقتحم[٢]

ما السبب الموجب لخفض "مصطبر ومقتحم" ولات ليست من أدوات الجر؟ فأطال الكلام فيهما، وأحسن الجواب عنهما . ولولا التطويل لذكرت ما قاله . قلت : ليت ابن خلكان أغفل التحرج من التطويل وذكر لنا الجواب لتعم الفائدة .

ولابن الحاجب نظم يدخل فى شعر العلماء . فمنه قوله فى الشيب :

قد كان ظنى بأن الشيب يرشدنى * إذا أتى فإذا غيى به كثرا

ولست أقنط من عفو الكريم وإن * أسرفت جهلا فكم عافا وكم غفرا

إن خص عفو إلهى المحسنين فمن * يرجو المسىء و يدعو كلما عثرا

---

(١) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبى الشاعر المشهور . وقد أجمع العلماء منذ عهده إلى الآن على أنه كان نادرة الزمان وأعجوبة الفلك فى صناعة الشعر، وأنه لم يكن فى وقته من الشعراء من يدانيه فى علمه ولا يجاريه فى أدبه ، ولا يسمو إلى مقامه فى سعة إحاطته . وقد تعرض لديوانه بالشرح والنقد والتخريج منذ عصره إلى الآن حوالى مائة من العلماء والأدباء . وما زال حتى اليوم موضع نظر كل عالم ، ومدرسة كل أديب فاهم . ومن خصائصه أنه يتغلغل بمعانيه فى طوايا النفوس و يصف الطبائع البشرية على ما هى عليه ، حتى لتكاد ترى له قولا فى كل خاطرة ، ومثلا فى كل بادرة . فهو شاعر الحكمة النفسية ، وحكيم الأحداث الزمنية . على أنه لا تكمل للأديب آلته إلا باستظهار أقواله ، واستحضار أمثاله . كان مولده فى سنة ٣٠٣ هـ . ومات مقتولا فى أواخر شهر رمضان سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) .

(٢) وهذا البيت من قصيدة له أولها :

ضيف ألم برأسى غير محتشم * والسيف أحسن فعلا منه باللمم

وهى ٣١ بيتا . تراها فى ديوانه . تصبرت : تكلفت الصبر حتى نفد فلا اصطبار . لات : معناها : ليس . وأصلها « لا » زيدت عليها التاء كما زيدت على « رب » و « ثم » فصارتا « ربت » و « ثمت » وقد يجر بها كما قد ينصب . ومن أراد المزيد فعليه بكتاب "خزانة الأدب" لعبد القادر البغدادى . وهو شرح لشواهد الرضى الاستراباذى على « كافية » ابن الحاجب . فالآن أقحم : يريد أقحم نفسى فى قحم المهالك حتى أدرك مطلبى أو أهلك دونه .

وقال فى صاحبه الشيخ ناصر الدين أبى العباس أحمد بن المنير الاسكندرى :

لقد سُئمت حياتى اليوم لولا * مباحث ساكن الاسكندريه
كأحمد سبط أحمد حين يأتى * بكل غريبة كالعبقريه
تذكرنى مباحثُه زمانا * وإخوانا لقيتُهم سَويه
زمان كان فيه لا يبارى * مدرّسنا وتغبطنا البريه
مضوا فكأنهم إما منام * وإما صُبحة أضحت عشيه

وكتب إلى الحافظ منصور بن سليمان [(١)] :

إن غبتم صورة عن ناظرى فما * زلتم حضورا على التحقيق فى خلدى
مثل الحقائق فى الأذهان حاضرة * وإن ترد صورة فى خارج تجد

وله فى المعنى نفسه :

إن تغيبوا عن العيون فأنتم * فى قلوب حضوركم مستمر
مثل ما تثبت الحقائق فى الذ * هن وفى خارج لها مستقر

وقوله فى الشيب :

كنت إذا ما أتيت غيا * أقول بعد المشيب أرشد
فصرت بعد ابيضاض شيبى * أسوأ ما كنت وهو أسود

ونبت به مصر فقال :

ياأهل مصر وجدت أيديكم * فى بذلها بالسخاء منقبضه
لما عدمت القرى بأرضكم * أكلت كتبى كأننى أرضه

---

(١) هو الإمام الحافظ وجيه الدين أبو المظفر منصور بن سليمان (ابن العماد) الهمدانى الاسكندرانى الشافعى . توجهت همته إلى الفقه وأصوله . والحديث وفنونه ومنازل رجاله . وألف فى ذلك المؤلفات القيمة . وله فوق ذلك "تاريخ الاسكندرية" كان مولده فى صفر سنة ٦٠٧هـ . قال مؤرخوه : لم يخلف بعده فى الثغر مثله . مات فى شوال سنة ٦٧٣هـ (١٢٧٥م) .

واشتهر فى زمانه هذان البيتان، قالهما بعضهم ملغزا، وهما :

ربما عالج القوافى رجال * فى القوافى فتلتوى وتلين
طاوعتهم عين وعين وعين * وعصتهم نون ونون ونون

فقال ردًا عليهما :

أى غد مع يد دد ذى حروف * طاوعت فى الروىّ وهى عيون
ودواة والحوت والنون نونا * ت عصتهم وأمرها مستبين

فيعنى بقوله : عين، وعين، وعين . نحو : غد، و يد، وددن . فإن وزن كل منهما : فع . إذ أصل غد : غدو . و يد : يدى . ودد : ددن . و بقوله : نون، ونون، ونون : الدواة، والحوت، والنون الذى هو الحرف .

وله فى أسماء قداح الميسر :

هى فَذٌّ وتوأمٌ ورقيبٌ * ثم حِلسٌ ونافس ثم مُسبل
والمُعلّى والوغدُ ثم سفيح * ومنيح وذى الثلاثة تُهمَل
ولكل مما عداها نصيب * مثله إن تعد أول أول

ثم تاقت نفسه إلى سكنى الاسكندرية ، وكانت إذ ذاك محط رحال العلماء، ومرمى آمال الأدباء، ومثوى جهابذة الفضلاء. فرحل إليها، واعتزم الإقامة بها ؛ ولكن القدر لم يمهله ، فلم تطل مدّته فى ربوعها . وتوفى بها عن خمس وثمانين سنة — كما قال السيوطى — وذلك فى ضحوة يوم الخميس ٢٦ من شوال سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٩م)، ودفن خارج باب البحر بتربة الشيخ الصالح ابن أبى شامة .

وقد قال الشيخ ناصر الدين بن المنير هذه الأبيات وكتبها على قبره . وهى :

ألا أيها المختال فى مُطرَف العمر * هلم إلى قبر الإمام أبى عمرو
ترالعلمَ والآدابَ والفضلَ والتقَى * ونيلَ المنَى والعزَّ غُيبن فى قبر
وتوقن أن لا بد يرجع مرة * إلى صدف الأجداث مكنونه الدر
فتدعو له الرحمن دعوة رحمة * يُكافَى بها فى مثل منزله القفر

قلت : ويا حبذا لو كتبت وزارة الأوقاف هذه الأبيات فى لوح من الرخام يثبت فوق ضريحه . عليه رحمة الله .

أما ما تركه من تصانيف ومؤلفات، فهى فى نهاية الحسن والإفادة ، وقد رزق فيها الحسنى وزيادة . ذاعت بعده فى جميع الأقطار ، وتناولها العلماء بالإجلال والإكبار . لما اتصفت به من الجودة والإتقان ، وما حوته من الدقة والجزالة والإحسان . فمنها :

كتاب " الجامع بين الأمهات " — فى الفقه — وقد أثنى عليه الإمام تقى الدين ابن دقيق العيد المصرى الشافعى . فقال فيه : "هذا كتاب أتى بمعجب العجاب ، ودعا قصىَّ الإجادة فكان المجاب ، وراض عصىَّ المراد فأزال شماسته وانجاب . وأبدى ماحقه أن يبالغ فى استحسانه . وتشكر نفحات خاطره ونفثات لسانه . فانه رحمه الله تعالى تيسرت له البلاغة فتفيأ ظلها الظليل ، وتفجرت له ينابيع الحكمة، فكان خاطره ببطن المسيل ، وقرب المرمى فخفف الحمل الثقيل ، وقام بوظيفة الإيجاز فناداه لسان الانصاف : ما على المحسنين من سبيل " .

قال ابن فرحون : وكان الشيخ تقى الدين شرع فى شرحه على طريقة حسنة من البسط والإيضاح والتنقيح وخلاف المذهب واللغة العربية والأصول . فلو تم هذا الشرح لبلغ به المالكية غاية المأمول . وقد عُنى العلماء بشرح هذا الكتاب شرقا وغربا .

كتاب " المختصر " فى أصول الفقة — إختصره مرة ثانية . وصار المختصر الثانى كتاب الناس . قال ابن الزملكانى [1] : ليس للشافعية مثل مختصر ابن الحاجب .

---

(١) هو العلامة كمال الدين محمد بن على الزملكانى الأنصارى . كان مولده بدمشق سنة ٦٦٧هـ . قال الذهبى : كان عالم العصر ، وكان من بقايا المجتهدين ومن أذكياء أهل زمانه . تخرج به خلق . وله تصانيف عدة فى فنون شتى . طلب لقضاء مصر فحضر إلى الديار المصرية ، فلما كان ببلبيس توفى وحمل إلى القاهرة ميتا ودفن قريبا من قبر الإمام الشافعى . وكانت وفاته فى ١٦ رمضان سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) .

كتاب " الكافيه " فى النحو ، وهو مقـدمة وجيزة . ثم نظمها فى كتاب دعاه " الوافيه فى نظم الكافيه " .

كتاب " الشافيـة " فى التصريف — وهو مقدمة وجيزة أيضا . ثم شرحها وانتفع بها الطلاب إلى اليوم .

كتاب " فى القراءات " وكتاب " فى العروض " .

كتاب " الأمالى فى النحو "، وهو كبير الحجم فى غاية الإفادة والتحقيق .

كتاب " الإيضاح " فى شرح المفصل للزمخشرى .

كتاب " المختصر فى الأصول " وهو أجل كتبه وأشهرها . ما برح العلماء فى كل قطر من الأقطار الاسلامية يعرضون له بالشرح والبيان ، ويعلقون عليـه الحواشى والتقارير، ويتدارسونه مع الاحتفال والاعتناء منذ عصر المؤلف إلى اليوم . وكان آخر من قـرأه من علمـاء مصر فى مسجد أبى العبـاس المرسى بالاسكندرية ، بجوار قبر ابن الحاجب : الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوى (١) شيخ الأزهر، أيام كان شيخا لعلماء الاسكندرية ، ثم من بعده الشيخ عبد المجيد اللبـان . ثم لم يوجد من يستقل بقراءته بعدهما . فأبدلوه بجمع الجوامع .

وله كتاب " المنتهى " فى الأصول أيضا .

وقبر ابن الحاجب الآن داخل جامع أبى العباس الجديد .

وهذا ابن الحاجب .

وأما الثالث فهو :

---

(١) كانت وفاة الشيخ محمد أبى الفضل فى ٢٧ يوليه سنة ١٩٢٧

الفاكهانى

الفقيه العلامة تاج الدين أبو اليمن عمر بن على بن سالم بن صدقة اللخمى الفاكهانى، يكنى أبا حفص الاسكندرى. كان مولده بالاسكندرية سنة ٦٥٤هـ. وكان فقيها فاضلا، وعالما متفننا، ومحدثا بارعا، وأصوليا متقنا. كما كان جيد المعرفة بالنحو، والصرف، والعربية، والأدب. مع الحظ الوافر من الدين المتين، والصلاح العظيم. والخلق الكريم، وآتباع السلف.

قرأ القرآن بالقراءات على أبى عبد الله محمد «حاق رأسه»[1]، وسمع منه، ومن أبى عبد الله محمد بن طرخان[2]. وتق الدين بن دقيق العيد، والبدر بن جماعة، وعتيق العمرى[3]، وأخذ عن آبن المنير وغيره، وكان مالكى المذهب. وصحب جماعة من الصالحين وتخلق بأخلاقهم، وتأدب بآدابهم، وسلك طريقهم، فكان من التقوى والورع على جانب عظيم، وحج غير مرة.

وله من المصنفات "شرح العمدة فى الحديث". قالوا إنه لم يسبق إليه لكثرة فوائده. و"المنهج المبين فى شرح الأربعين" للنووى. وله "الإشارة فى العربية" وشرحها. و"التحفة المختارة فى الرد على منكر الزيارة". و"الفجر المنير فى الصلاة على البشير النذير".

---

(١) هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد العزيز (حاق رأسه) التلمسانى الاسكندرانى. كان مولده بتاهرت من ظاهر تلمسان سنة ٦٠٦هـ. ولما أخذ حظه من العلم وفد إلى الديار المصرية ونزل الاسكندرية، وأقام بها يعلم العربية زمانا، وكان من أئمتها. قال أبو حيان: كان شيخ أهل الاسكندرية فى النحو، تخرج به أهلها. مات فى رمضان سنة ٦٩٣هـ (١٢٩٤م).

(٢) هو الشيخ شرف الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الخالق بن طرخان، الأموى الاسكندرى، كانت له عناية بالحديث وفنونه. مات سنة ٦٨٧هـ (١٢٨٨م).

(٣) هو تق الدين أبو الفتح عتيق بن عبد الرحمن العمرى. رحل فى طلب العلم وحصل وأفاد. وكان من أفاضل المحدثين، مع الزهد والورع، وفضائله كثيرة. توفى بالقاهرة فى ذى القعدة سنة ٧٢٢هـ (١٣٢٢م).

وقيل إن له شعرا حسنا . غير أنى لم أقف له إلا على هـذين البيتين اللذين نقلهما من الهجاء إلى المديح، حيث قال :

ضُمت مكارِم تأتِى مِنك ظاهِرة * إلى مكارِم أبقاها أبوك لكا
فإن تقدّمت أبناء الكِرامِ بِهِ * فقـد تقـدّم آباء الكِرامِ بكا

ولما حضرته الوفاة جعل بعض أقاربه ،وهو صهره الفقيه ابن ميمون، يتشهد أمامه ليذكره ، ففتح عينيه وأنشد :

وغدا يذكرنى عهـودا بالحِمَى * ومتى نسِيت العهد حتى أذكرا

ثم تشهد وقضى نحبه . وكانت وفاته بالاسكندرية فى سنة ٧٣٤ هـ (١٣٣٤ م). ودفن ظاهر باب البحر بمقبرة أبى العباس .

وقبر الفاكهانى الآن داخل جامع أبى العباس الجديد .

وهذا الفاكهانى .

وأما الرابع فهو :

ابن اللبان

العلامة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد المؤمن الإسعردى الدمشقى المصرى الشافعى (ابن اللبان). كان مولده بدمشق سنة ٦٨٥هـ (١٢٨٦م). وحضر علومه على شيوخ الديار الشامية، ورحل إلى الديار المصرية، وسمع من شيوخها وتفقه بابن الرفعة[١]، وأنزله ابن الرفعة وأكرمه إكراما كثيرا، وتولى التدريس بقبة الإمام الشافعى وغيرها من مجالس العلم. وكان متبحرا فى الأصول، متضلعا فى الفنون، فقيها، محدثا، عارفا بالعربية، شاعرا، جيد القراءات، حسن التفسير، حر الفكر، مرسل الرأى، ذا همة وصرامة وانقباض عن الناس، يجمع إلى العلم العمل.

وفى سنة ٧٣٧هـ. حدثت له محنة إذ رفع إلى مجلس الحكم بدعوى أنه قال كلاما يوجب تأويله مؤاخذة مثله. فلما حضر إلى مجلس القاضى جلال الدين القزوينى[٢] دافع عن نفسه حتى ظهرت براءته. غير أنه استتيب ومنع من الكلام على الناس، فتعصب عليه بعض الحنابلة، ولم تهدأ الثائرة حتى رسم بنفيه، فنفى. وبعد فترة أعيد إلى شأنه، وتخرج به جماعة من الفضلاء.

وصحب فى التصوف الشيخ ياقوت العرشى، وتزوج ابنته، فلما توفيت أوصى أن يدفن عند قدميها حين وفاته، إكراما لأبيها وإجلالا لمقامه.

---

(١) هو الشيخ الفقيه نجم الدين أحمد بن محمد (ابن الرفعة) الأنصارى. شيخ الاسلام فى مصره وحامل لواء الشافعية فى عصره. كان مولده بمصر سنة ٦٤٥هـ. وتلق علومه على مشيخة عصره وولى حسبة مصر، ودرس بالمعزية، وناب فى القضاء. وله مؤلفات فى الفقه واسعة الأطناب. وكانت وفاته بمصر فى رجب سنة ٧١٠هـ (١٣٠٧م). ودفن بالقرافة.

(٢) هو القاضى جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزوينى الشافعى. ولى قضاء الشام، ثم قضاء الديار المصرية. وكان من أجلاء العلماء، وهو صاحب كتاب "تلخيص المفتاح" فى البلاغة. وكان جم الفضائل. توفى أواخر سنة ٧٣٩هـ (١٣٣٩م).

وله مصنفات حسنه ، منها " ترتيب كتاب الأم " للإمام الشافعى . بوبه ورتبه على المسائل ، لكنه لم يبيضه ، و " إزالة الشبهات عن الآيات والأحاديث المشتبهات " تكلم فيه على طريقة الصوفية ، و " ردّ معانى الآيات المتشابهات إلى معانى الآيات المحكمات " فى التفسير ، لم يكمل ، و " اختصار الروضة " و " كتاب فى علوم الحديث " و " كتاب فى النحو " .

وكانت وفاته بالاسكندرية بالطاعون فى شوّال من سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٩ م) . ودفن فى مقبرة أبى العباس .

وأخبرنى بعض العارفين من أفاضل الاسكندرية أنه أحد أجداد العلامة المرحوم الشيخ عبدالمجيد اللبان أحد أكابر علماء الأزهر ، وشيخ علماء الاسكندرية ، وشيخ كلية أصول الدين . المنتقل إلى رحمة الله تعالى فى ١٣ من ذى القعدة سنة ١٣٦١ (٢٢ نوفمبر سنة ١٩٤٢) .

وقبر ابن اللبان الآن داخل جامع أبى العباس الجديد .

وهذا ابن اللبان .

وأما الخامس فهو :

الامير يحماس

يحماس بن عبد الله الإسحاقى الظاهرى ، نسبة إلى الملك الظاهر جقمق (٨٤٢ — ٨٥٧ هـ) الذى نشأ فى خدمته . وكان للظاهر جقمق به عناية خاصة، فعلمه وخرجه حتى لكان يكتب الخط الحسن ويجوّده فيشبه خط أستاذه . وبهذا قدمه وأجازه ، وبعثه إلى الحج فى صحبة تمربغا . ثم عينه الملك الظاهر خُشقدم (٨٦٥ — ٨٧٢ هـ) خازندار كيس ، وأمّره .

ولما استقر الأشرف قايتباى على عرش مصر (٨٧٢ — ٩٠١ هـ) رقاه وأرسله إلى الشام . ثم ولاه نائبا للاسكندرية وجعله أميراخور . وفى هذه الأثناء عين أميرا للحج واستصحب معه جماعة من أكابر الفقهاء .

وبعد عودته من الحج أخذ فى إنشاء بعض الآثار وتجديدها، فعمر البرج السلطانى بالاسكندرية ، كما أنشأ جامعا فى ظاهر باب رشيد خارج الاسكندرية ، وإلى جانبه خان أمن به الوافدون على الثغر بعد الغروب، مما كان يحدث لهم من السطو والسرقات ، وانتفع به الناس نفعا كبيرا . وأحدث بهذا المكان بستانا نضيرا ، كما جدّد جامع الصوارى ظاهر باب سدرة، وعمر بالجزيرة، خارج باب البحر على شاطئ السلسلة، رباطا، وأودع فيه من الأسلحة والأقوات ما يلزم للمرابطين . وغير ذلك مما يطول شرحه ، ووقف على منشآته فى الديار المصرية الأوقاف الدارة ، وبنى لنفسه تربة إلى جانب الخان ، ولكنه لم يدفن فيها، وإنما دفن فيها زميله الملك الظاهر تمربغا (سنة ٨٧٢ هـ) .

وفى سنة ٨٨٢هـ (١٤٧٧ م) جدد بناء مسجد أبى العباس المرسى بالإسكندرية بعد أن كان قد تشعث وتهدم، وبنى له فى هذا المسجد قبرا دفن فيه .

ولما عينه الملك الأشرف قايتباى نائبا على الديار الشامية جدد بها آثارا ، وأنشأ مدارس، وقرر فيها الصوفية، وهيأ لهم وسائل العيش ببناء مطبخ للدشيشة. ثم سافر فى عدة غزوات، وعاد إلى الديار المصرية .

وفى سنة ٨٨٦ هـ (١٤٨١م) أنشأ بالقاهرة مدرسة بالدرب الأحمر عند سوق الغنم . وهى التى عرفت فيما بعد "بجامع أبى حريبة" . وقد ذكر على مبارك باشا فى خططه أن الأمير يخجاس أنشأ هذا الجامع فى سنة ٦٨٦هـ . كما وجد فى بعض نقوش حجرية . قلت : وهذا خطأ لا شك فيه . والصواب ما أثبتناه أولا .

وإنما عرفت مدرسة يخجاس هـذه " بجامع أبى حريبة " لأن الشيخ أحمد أبى حريبة حينما توفى سنة ١٢٦٨هـ (١٨٥١ م) دفن فيها فعرفت به .

ومن هذه الأعمال يتبين أن الأمير يخجاس كان ميالا للعمارة ، مطبوعا على حب الخير ، موقرا للعلماء . ملازما للفقهاء . محبا للصالحين . مع الدين والتقوى والاحتشام ولين الجانب .

وفى آخر يوم الخميس ثانى شوال سنة ٨٩٢هـ (١٤٨٧ م) توفى وصلى عليه من الغد ، ودفن فى تربته بمسجد أبى العباس .

وزعم ابن إياس أنه توفى بالشام . وليس هذا بثبت .

وقبر الأمير يخجاس الآن داخل جامع أبى العباس الجديد .

وهذا الأمير يخجاس .

وأما السادس فهو :

الخـــزرجى

الأديب البارع الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبى بكر السنفى الخزرجى الشهير "بقعود". فهو اذًا من قبيلة أبى العباس. كان أحد العلماء المشاهير فى عصره، وكان أديبا حسن النظم والنثر، حاضر البديهة، كريم الأخلاق، جيد الخلال، جوادا مبذالا. وله تجديد و إصلاح فى مسجد أبى العباس القديم. ولذا قال فيه صاحبه الأصيلى(١)، وهو من شعراء السلافة :

لِلهِ در شِهابِ الدينِ مرتقيا * فى الجودِ والنسبِ السامى على السلفِ
من رام يبغى وفا أو منتهى نسبٍ * قالت فضائله فى ذا وذا سنفِى

(١) هو شرف الدين يحيى الأصيلى المصرى. كان مولده بدمياط و بها تلق علومه، ثم حضر الى القاهرة. وكان أديبا متفننا، وشاعرا محسنا، وكاتبا مجيدا. وكان مع هذا يقرأ القرآن بصوت حسن يطرب له سامعه، و يتغنى فى الحفلات بأنغام تستطير القلوب وتملك الأرواح. وكان حسن المحاضرة، بليغ النكتة، حاضر البديهة، جميل الشكل، نظيف الثياب، محببا إلى القلوب. وكان مختصا ببيت السادة البكرية مكرما عندهم. أثيرا لديهم. وكان أهالى القاهرة يحتشدون فى ليالى حفلاتهم لسماع الأصيلى، والاستمتاع بقراءته وأناشيده. ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، فبعد استيفاء حجه وأداء مناسكه، توفى يوم ٨ محرم سنة ١٠٠١هـ. كما ذكر ابن معصوم فى السلافة (١٥٩٢م). ومن جيد شعره، ولعله كان نشده بيت البكرية ببولاق :

لى فى المحبة عن ملام العاذل * بمجال من أهواه أشغل شاغل
أثرت عيونى بالسهاد وإنما * دمعى الذى أحظى بوصف السائل
إن غردت ورق الحمائم جددت * شوقا أهاج من الغرام بلابلى
بأبى غزال أرض نجد داره * لكن لواحظه عزين لبابل
لدن المعاطف رق مرشف ثغره * فاعجب له من ذابل فى ذابل
ولحاظه حفت بأصداغ فيا * لله من سيف سطا بحمائل
تتطاول الأغصان تحكى قده * وإلى التناهى مرجع المتطاول
أعيا الفصيح نبات عارضه فقل * قس الفصاحة من أسارى باقل

وأكثر شعره فى غاية العذوبة والرقة.

وقد أخذ عنه جماعة من الأدباء، وانتفع به فريق من العلماء . منهم : ولده أبو بكر، والشهاب أحمد الخفاجى[١] . وقد وصفه الخفاجى بقوله :

"بليغ سحب ذيل بلاغته على سحبان . وروض أدب فى كل ورقة خطها بستان . ألفاظه أرق من دمع السحاب ، وأطرب من كأس يضحك بثغر الحباب . سطور شعره قضب عليها من قوافيه حمام ، وعصره وإن تأخر لمدام الأدب مسك ختام . وإن ورّى فالكلمات لحيائها ذات توارى ، أو زف أبكار أفكاره فالكُنّس لِشهبها جوارى ، وهو من أعيان مصرنا فضلا وأدبا . وممن مال لرقته كل نسيم وصبا . وربما جعل الشعر لكسبه سببا ، واتخذ سبيله فى البحر عجبا . وله مكارم أخلاق . تجدد مآثر الجود والأخلاق ... ومع كون طبعه مهزأ بالشمال والشمول، أدركته حرفة الأدب فاعتكف فى زوايا الخمول .

وله مؤلفات كثيرة نظما ونثرا . منها : "منظومة فى النحو" و "منظومة فى الزحافات والعلل العروضية" و "تذكرة" جمع فيها من لقيه من الشيوخ ومن عاصره، وكثيرا من نظمه البديع .

---

(١) هو القاضى شهاب الدين أحمد الخفاجى . كان من أكابر علماء عصره . ولى قضاء العسكر فى الدولة العثمانية . وكان مولده بدمشق ، ورحل الى البلاد وأخذ عن شيوخ عصره فى الشام والحجاز والقسطنطينية ومصر . وله مؤلفات فى غاية الاحسان فى فنون شتى . ومن أشهرها وأقربها إلى أيدى الأدباء كتابه "ريحانة الألبا" وكان كاتبا بليغا وشاعرا حسن التصرف وأديبا متفوقا . مع الفقه ، والأصول ، والطب ، والمنطق ، وسائر العلوم المعروفة فى عهده . وله "شرح الشفا" وهو حسن جدا . وقد صنع مقامات جارى بها من تقدمه ممن عرض لهذا الفن . ولما عزل عن منصب قضاء العسكر كثر تخطه على رجال الدولة وأكثر من انتقاد تصرفاتهم حتى قال :

جيوش ما لها فى الملك نفع * حكت صورا تصوّر فى كتاب
وأيت قتالهم من غير نبل * كمثل الضرب فى كتب الحساب

وشعره كثير وآثاره غزيرة . وكانت وفاته بمصر فى يوم الثلاثاء ١٢ من شهر رمضان سنة ١٠٦٩هـ (١٦٥٩م) .

(١٠)

ومن شعره قوله :

يا صاحباى اتركا مُعَنًّى * أو فاعذلاه وعارضاه
فما تُطيقان رشد غاوٍ * بما يلاقى وعىٰ رضاه
سبا حشاه والعقل منه * عينا غزالٍ وعارضاه
يا جمع من صيروا التصابى * فى الحسن عارا بالعار ضاهوا

ومن قوله — من قصيدة — لم أعثر منها إلا على هذه الأبيات الأربعة :

تفت فؤادك الأيام فتا * وتحت جسمك الساعات نحتا
وتدعوك المنون دعاء صِدقٍ * ألا يا صاح أنت أُريد أنتا

ومنها فى فضل العلم :

وكنز لا تخاف عليه نهبا * خفيف الحمل يوجد حيث كنتا
ستجنى من ثمار الجهل شوكا * وتصغر فى العيون إذا كبرتا

ومن قوله :

لى حبيب من هجره زاد سكرى * وسلوى هواه أقبح ذنب
جاءنى داعيا وقال: ائتِ إنى * أولم اليوم. قلت: قلب المحب

ومنه قوله فى قهوة البن :

هِم بابنة البن فقد ودها * للطفها ربُّ الحجى والدها
مذ ساوت العنبر لونا شذا * لا تدعنى إلا بيا عبدها

وكانت وفاته بالاسكندرية سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٨ م) . ودفن فى قبر بجوار أبى العباس المرسى .

وقد وقفت على حكاية أدخلت الشك عندى فى صحة هذا التاريخ الذى توفى فيه الخزرجى فقد قال يحيى الأصيلى : كنت أنا وشيخنا العلامة نور الدين العسيلى

جالسين عند (الأستاذ محمد البكرى بمنزله ببولاق) . وقد ذكر فى المجلس جماعة من أفاضل الدهر، وأدباء العصر ، توفوا فى مدة قريبـة ، كالعلامة الفارضى والشهاب السنفى (فى الأصل النسفى وهـو خطأ) والبرهان المبطل، وخلائق غيرهم ، فأنشد (البكرى) بديهة :

أقول وقـد قيل لى كم مضى * أديب له حسن نظـم جليل
دعـوا كل ذى أدب ينقضى * ويحيي العسيلى ويحيي الأصيلى

فهـذه الحكاية تثبت أن السنفى قد توفى قبل الأصيلى . وعنـد ابن معصوم أن الأصيلى توفى بمكة سـنة ١٠٠١ هـ . والمعروف أن السنفى توفى سـنة ١٠٠٧ هـ . فأى التاريخين صواب وأيهما خطأ ؟ إنى أرجح صدق هـذه الحكاية وأن السنفى توفى قبـل الأصيلى الذى كانت وفاته فى السنة التى تلت وفاته . ولا مبرر لافتعال هذه الحكاية وإن كان بها تشريف للأصيلى بشهادة السيد محمد البكرى له . وليس ببعيد أن يخطئ ابن معصـوم فى تاريخ وفاة الأصيلى ، فبـدلا من أن يقول توفى سنة ١٠٠٨ هـ . قال توفى سنة ١٠٠١ هـ . والله أعلم .

وقبر الخزرجى الآن داخل جامع أبى العباس الجديد .

صحيفـة الختـام

رأينا من الخير أن نختم هذه الرسالة بشكر من أمدّ هذا الأثر الجليل، وهو جامع أبي العباس المرسى، بيده، أو بعقله، أو بعلمه، أو برأيه. ومن ساعد بما فى مقدوره فى النهوض به، حتى بلغ الغاية المرجوّة من التمام، وأوفى على النهاية من الكمال.

سجـل الفضـل :

ولما كان العمل فى الجامع قد مضى عليه قرابة أربعة عشر عاما — منذ اتجهت الفكرة الملكية السامية إليه — بين نهوض وركود، وأشغال وإهمال، ولم يبلغ غايته المبتغاة إلا فى هذه السنة، وذلك بفضل ما بذله :

حضرة صاحب المعالى السيد محمد عبد الهادى الجندى باشا وزير الأوقاف فى سبيله من همة عالية، وعناية فائقة، حتى كاد عمل سنة واحدة على يديه يربى على عمل الأربع عشرة السنة الماضية، كان من الواجب أن نسجل لمعاليه فى هذه الصحيفة آيات الشكر، وعبارات الثناء بلسان الخير.

كما نسجل الفضل لمن شدّ أزره فى هذه النهضة الكريمة، ونخص بذلك :

حضرة صاحب العزة العالم المهندس الكبير الأستاذ محمد صبرى شهيب بك وكيل وزارة الأوقاف.

وحضرة صاحب العزة العالم القانونى الجليل الأستاذ محمد عمر دمرداش بك الوكيل المساعد.

فلا ريب فى أنهما كانت لهما الهيمنة الدائمة والإشراف المستمر، على دقائق الأعمال وجلائلها من البداية إلى النهاية. فلهما من الله حسن الجزاء.

جريدة العاملين :

كذلك يحسن بنا أن نسجل هنا أسماء العاملين الذين أخلصوا فى عملهم فوضعوا الرسوم "التصميات" وقاموا على إنفاذها وهم :

(أولا) مديرو قسم الهندسة ، بوزارة الأوقاف : سيد متولى بك ، المرحوم إسماعيل عمر بك ، على فريد بك ، الأستاذ أحمد فهمى ابراهيم مدير القسم حالا .

(ثانيا) مهندسو المشروع : فالسانيه ، روسى ، محمد كمال إسماعيل ، عبد الحميد سليمان .

(ثالثا) المشرفون على التنفيذ : يحيى قدرى ، صلاح الدين شرف .

المقاولون :

أما المقاولون الذين قاموا بعمليات البناء ، و إنفاذ رسوم الإنشاء ، فهم :

(ا) إخوان خاتينا . وقد اختصوا بوضع الأسس .

(ب) شركة المقاولات : عبد الحليم و إبراهيم نصير . وقد اختصوا بأعمال البناء فوق الأسس ، وأعمال الحجر الصناعى ، والأعمدة الجرانيت ، والخراسانات ، والمئذنة .

(ح) سعيد وشركاه . وقد اختصوا بأعمال النجارة ، والدهان ، والسلالم ، وفرش الأرض بالرخام ، وكسوة الحيطان من الداخل .

* * *

وأخيرا لا بد لنا من أن نذكر بالخير إدارة الأوقاف بالاسكندرية لما قامت به من الرقابة المباشرة على سائر الأعمال . ونخص بالذكر مديريها . وهم : الأساتذة : مصطفى فهمى الزيات ، ومحمد بغدادى أبو الوفا ، وأحمد فوزى البرديسى مدير أوقاف الاسكندرية حالا .

*
* *

وختاما نبتهل إلى الله سبحانه وتعالى أن يحسن إلينا إن كنا من المحسنين ، وأن يتجاوز عن هفواتنا إن كنا من المخطئين ، فإليه المرجع والمآب ، وإليه ترفع صحف الحساب ، وهو الغفور الرحيم ، العفوُّ الكريم . له الحمد فى الأولى والآخرة .

*
* *

وكان الفراغ من وضع هـذه الرسالة وتحريرها ، وتوشيتها وتحبيرها ، فى مساء الثلاثاء ٢٨ من جمادى الأولى سنة ١٣٦٢ (أول يونيه سنة ١٩٤٣) .

***

وكان تمام طبع هذه الرسالة الخالدة فى عهد المصلح الكبير حضرة صاحب المعالى الأستاذ الجليل عبد الحميد عبد الحق وزير الأوقاف . فبفضله تم طبعها، وبحسن رعايته عم نفعها . فلمعاليه من الله تعالى عظيم الأجر، ومن عباد الله جزيل الشكر ه

القاهرة فى ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٣٦٣ (٢٠ مايو سنة ١٩٤٤)

حسن السندوبى

المصادر التى اعتمدت عليها فى تحرير هذه الرسالة

(١) أفضل القرى لقراء أم القرى ، وهو شرح ابن حجر الهيتمى على همزية البوصيرى .

(٢) البداية والنهاية فى التاريخ لابن كثير .

(٣) البستان فى اللغة للشيخ عبد الله البستانى .

(٤) بغية الوعاة للسيوطى .

(٥) تاج العروس فى شرح القاموس للسيد مرتضى الزبيدى .

(٦) تاج العروس الحاوى لتهذيب النفوس لابن عطاء الله السكندرى .

(٧) تاريخ الأندلس لأشباخ الألمانى ترجمة محمد عبد الله عنان .

(٨) تحفة النظار (رحلة ابن بطوطة) .

(٩) التنوير فى إسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندرى .

(١٠) التوفيقات الإلهامية لمختار باشا المصرى .

(١١) جامع التصانيف الحديثة المصرية لعبد الله الأنصارى .

(١٢) الجامع المختصر فى التاريخ لابن الساعى .

(١٣) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى .

(١٤) حكم ابن عطاء الله السكندرى بشرح ابن عباد النفزى الرندى .

(١٥) الحلل السندسية للأمير شكيب أرسلان .

(١٦) حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى .

(١٧) خزانة الأدب للبغدادى .

(١٨) الخطط التوفيقية الجديدة لعلى باشا مبارك .

(١٩) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) .

(٢٠) دائرة المعارف للبستانى .

(٢١) الدرر الكامنة لابن حجر .

(٢٢) الديباج المذهب لابن فرحون اليعمرى .

(٢٣) ديوان أبى الطيب المتنبى .

(٢٤) ريحانة الألبا للشهاب الخفاجى .

(٢٥) سلافة العصر لابن معصوم .

(٢٦) السلوك لمعرفة دول الملوك لتقى الدين المقريزى

(٢٧) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى .

(٢٨) صبح الأعشى للقلقشندى .

(٢٩) الضوء اللامع للسخاوى .

(٣٠) الطالع السعيد للادفوى .

(٣١) طبقات الشاذلية لابن الكوهن الفاسى .

(٣٢) طبقات الشافعية لابن السبكى .

(٣٣) عصيدة الشهدة فى شرح قصيدة البردة للشيخ عمر بن أحمد الخربوتى .

(٣٤) الفوائد البهية فى تراجم الحنفية للكنوى الهندى .

(٣٥) فوات الوفيات للصلاح ابن شاكر .

(٣٦) القاموس المحيط للفيروزابادى .

(٣٧) الكواكب الدرّية فى طبقات الصوفية للمناوى .

(٣٨) لطائف المنن لابن عطاء الله السكندرى .

(٣٩) لطائف المنن والأخلاق للشيخ عبد الوهاب الشعرانى .

(٤٠) اللطيفة المرضية بشرح حزب الشاذلية للشيخ داود بن ماخلا .

(٤١) لواقح الأنوار فى طبقات الأخيار (الطبقات الكبرى) للشعرانى .

(٤٢) معجم البلدان لياقوت .

(٤٣) معجم المطبوعات العربية ليوسف أليان سركيس .

(٤٤) المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية منسوب لابن عياد النفزى الرندى .

(٤٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار لتقى الدين المقريزى .

(٤٦) النجوم الزاهرة بأخبار مصر والقاهرة لأبى المحاسن بن تغرى بردى .

(٤٧) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرى .

(٤٨) نكت الهميان للصلاح الصفدى .

(٤٩) وفيات الأعيان لابن خلكان .

(٥٠) اليواقيت الثمينة لمحمد البشير ظافر المدنى .

رسالة أبى العباس المرسى

فهرس الموضوعات

فهـــرس الحـــواشي والتعليقات

(تابع) فهـــرس الحـــواشي والتعليقـات

مـؤلفـات

صاحب هذه الرسالة الأستاذ حسن السندوبى

			جزء
أعيان البيان	طبع فى سنة	١٩١٤	١
الشعراء الثلاثة	«	١٩٢٢	١
شرح على المفضليات	«	١٩٢٦	١
شرح على البيان والتبيين	«	١٩٢٧ أولى والثانية سنة ١٩٣٢	٣
شرح على المقابسات	«	١٩٢٩	١
أدب الجاحظ	«	١٩٣١	١
رسائل الجاحظ	«	١٩٣٣	١
شرح ديوان امرئ القيس	«	١٩٣٩	١
أخبار المراقسة وأشعارهم	«	١٩٣٩	١

كمُلَ طبع رسالة عن "أبو العباس المرسى" بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الثلاثاء ٦ رجب سنة ١٣٦٣ (٢٧ يونيه سنة ١٩٤٤) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٣/٣/١٠٠٠)